نورية تشالاغان



2.6.2014

عشق السكون

كل إمرأة هاجر

ترجمة

أحمد سليمان الإبراهيم

@ketab_n
Follow Me

رواية



الروائية التركية

نوريـة تشالاغـان



SPOT LIGHT
ON RIGHTS C

This edition has been produced with a subsidy by the spotlight On rights programme in abu dhabi

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج « أضواء على حقوق النشر » في أبو ظبي

ترجمة

أحمد سليمان الإبراهيم

Twitter: @ketab_n

عشــق الســكــون

كل امرأة هاجر

Twitter: @ketab_n

اسم الكتاب: عشق السكون .. كل امرأة هاجر

المؤلفة: الروائية التركية نورية تشالاغان

ترجمة: أحمد سليمان الإبراهيم

عدد الصفحات: 224

القياس: 14.5 ❖ 21.5

1000/2013م -1434هـ

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من مؤسسة تيدا - الثقافية والسياحية التركية

© جميع الحقوق محفوظة

Copyright ninawa



سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتـــف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
facebook.darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة،

أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر

Twitter: @ketab_n

«أنا أكبر سرٍّ للإنسان، والإنسان أكبر سرّ لي»

حديث قدسي

(روح البيان: 8/3)

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

السـر الأول

كان العالم موجود في خزينة السر التي لم تتكشف بعد .. سيرورة الكنز المخفي رفعت السر عن اللا وجود .. كان انكشاف السر يعني معرفته.. كان للسر حُرمته فأخفى نفسه..

أراد الكنز المخفي تسريب سرّه الأزلي ورفْع الستار عن السر وكشف النقاب عن حرمته.. أراد رفع ستائر الخفاء بخزينة ملأى بالأسرار.. أراد ذلك ليُعرف، أراد ذلك ليُرى..

قالت: الحرمة «ألف.. لام.. ميم» وكشف عن حرمته.. انكشف السر وفتح الكنز نفسه بألف باب وباب.. تدفقت الأسرار من كل باب.. سرٌ وراء سر..

عبّر كل سر عمّا يخفيه:

«ألف.. لام.. ميم»

بُدء الدخول من كل باب بألف طريق وطريق، ومُرشدٌ كان يقف عند أول كل طريق..

وأظهر الكنز سرّه حرفاً حرفاً ..

«ألف..

لام..

ميم..»

كانت الميم انعكاس السر على الوجود .

Twitter: @ketab_n

كانت الميم هي المكان، أداة السر ووسيلته.

كانت الألف صاحبة السر.

تدفقت الميم إلى الخارج كما الحمم.. وأُطلق عليها اسم «العشق»، بحثت اللام عن مكان لها .. مكان تستطيع فيه لعب دورها كأداة للعشق.. تنقل أخباره وتبشّر به.. مكانٌ «هو مكان لكنه لا مكان» وجدت اللام في قلب المكان المرام لتلعب دورها كأداة للعشق..

الألف كانت «هو» شغف العشق المجنون.. الاتحاد..

اللام كانت الأداة.. أداة بين الألف والميم.. وتقاسم السر خفاءه مع أكثر شيء مخفي..

صار القلب ميداناً لا تنفصم فيه الحرمة عن السر والغموض عن المجهول والشغف عن العشق..

كلُّ شيء بدأ مع هذه المغامرة.. إنها حكاية معرفة القلب ومعرفة السر الذي يُعرف بأنه العشق.. حكاية مفعمة بالأسرار..

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

خطوات العشق

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

انتظار..

لم يكن النيل، في ذاك العام، يتّسع لمياهه، كانت تزداد تموجاته كلما اقترب من سور القصر، يلطم الأسوار بصفعات مقهورة. نظرتُ بقشعريرة إلى أسوار القصر الغاضبة.

آه أيها النيل، أنت شيء آخر بالنسبة لي، أعتقد بأنك ستعطينني شيئاً ما، ستحضر لي شيئاً ما .. علماً بأنك لا تفعل شيء سوى أنك تأخذ أحدنا وترحل. ما هو رقم الشخص البريء الذي ستأخذه الآن؟

كم هي قوية قدرة الخوف.. تسمّرتُ في الأرض...

قال كبير حرّاس القصر: اجتمعوا في التراس، جئت إليكم بأمر.. لقد جلبوا «ألينا» جراً وضرباً إلى هناك، منذ عدة أشهر وهي تعمل في خدمة فرعون، كانت تفعل كل ما بوسعها من أجل تسليته. عجباً ما الذي جرى؟ ما الذي يمكن أن تفعله بحق فرعون هذه الفتاة الصغيرة؟

بداية، عندما طُردت «ألينا» من غرفة فرعون، قام كبير الحرّاس، الذي يعرف جيداً ما الذي سيفعله، بإغلاق فمها. لم يكن من الواجب تحويل الظلم إلى كلمات، أول شيء يفعله الظلاّم هو منع الكلام، فقدرة الكلام كبيرة جداً. الكلام هو الذي يضع يد اللا وجود على الوجود.

نظرت إلى عيني ألينا الملونتين بلون نهر النيل..

لا يمكن للخوف والحقد أن يتّحدا إلاّ داخل هكذا عينين. غرقت في طنين تلك العينين اللتين تصرخان باستغاثات صامتة: لا زلت شابة، أرجوكم لا زلت شابة، أريد أن أعيش.

Twitter: @ketab_n

ضربت أمواج النيل الغاضبة تلك العينين اللتين تراكم الخوف فيهما. تسرّب إلى داخلي كظلام مخيف، أُصبت بالقشعريرة.

لامس كبير الحراس ظهر الفتاة بمحراب كان يمسكه بيده. بداية، سال دم ألينا فلطّخ ثوبها الذي بلون الجلنار والذي تمزّق بالمحراب، ومشى على شكل خط مستقيم، سال دم الفتاة الشابة في البداية على الحجر وبعد ذلك سال على القلوب النازفة بلون الجلنار. كلما كانت ألينا تتقدم من الشرفة كانت تُسرع الخطى كطير يخفق قلبه من الخوف. كانت تريد الهرب من يد الحرس وتخفق بجناحيها وتطير بعيداً. جمدنا جميعنا في المكان ونحن نشاهد الصراع الدائر بين الظالم والمظلوم، بين من حقدنا عليه ومن تعاطفنا معه، لم يقتربا من بعضهما كما هما قريبين اليوم، لم يجتمعا من قبل في لوحة واحدة كما هما اليوم، نال الخوف من الجميع، عرفت لأول مرّة كيف يكون شعور الخوف، ثم فكّرت بالخوف: هل الظلم هو الذي يخيفنا أم مجسّم الظالم، لم أستطع التمييز، المهم أنني كنت خائفةً. كانت الاضطرابات البريئة لشخص لا حول له ولا قوة تنهش قلبي بمخالب خوف لا ترحم.

بات الصمت لغة حين سكت الكلام، لا أحد يجرؤ على الكلام أو حتى على ذرف الدموع، فالبكاء يعني عدم الموافقة على ما يجري، البكاء يعني مقاومة الظلم، سدّ الظلم مجاري الدمع فجفّت الينابيع ونشفت العيون.

اضطرب النيل كأسد يزمجر، نزفت القلوب بألم مع خفقات إنسانة بريئة، مسكينة.

جاء وقت الغروب وتلونت الشمس بلون الفراق.

الدم لا يزال يسيل من ظهر ألينا، والحرس يمسكها بقسوة من شعرها الذي تلطّخ بالدم. شعرها المتطاير كما الآمال التي تريد التمسّك بالجسد الغض.

Twitter: @ketab_n

ازداد توتّر النيل...

ازداد غضب الحرس قائلاً: انظروا. ثم أشار إلى الجسد الضعيف الذي يمسكه. وأردف قائلاً: لا تكونوا كهذه، هكذا ستكون نهاية كل من يُغضِب سيدنا.

اقترب كثيراً من حافة التراس، كان التراس مرتفعاً جداً. هدأ النيل.. قرّب الخوف الأجساد المتفرجة إلى بعضها كأنها تطلب النجدة، أُغلقت العيون كي لا ترى شيئاً. زمجر الحرس قائلاً:

- انظروا.

فُتحت عيون النساء المنتظرات بألم، برجفة خوف باردة. تلوّنت الوجوه المصفرّة بلون الموت الذابل.

بيدين قاسيتين صلبتين قبض الحرس كالكلاّب عنق الفتاة الغض كما الغراس الفتية.

تدفق

الوقت.. انحدرت الشمس بصمت.

جاءت النهاية.. سقط الخوف على الأرض الحجرية. صارت الأفئدة بلون الجمر. رمى الحرس الجسد الغض، بكل ما يحمله من آمال وأحلام، من التراس، تطاير الشعر وتبعه الجسد والثوب الملوّن بلون الجلنار.. مياه النيل القاسية احتضنت جسداً غضاً جديداً.

عكست الشمس اصفرار الموت على الأفق، تسمّرت عيناي على مياه النيل، الذي طالما انتظرت منه أن يهبني الأمل، وهو لا ينفك يحتضن أجساداً جديدة، يأخذها ويذهب.

رضخت الشمس لليل، كان الخوف يخيّم على كل شيء، واحمرار يلوّن الأفق بلون الجلنار.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

المخبر

عندما نشرت «الكاف» و«النون» خبر تحوّل اللا وجود إلى وجود قفزت الأشياء جميعها بفرح لدى سماعها الخبر. الخبر الأول عن الوجود جعل الحياة على الدوام تضطرب لسماع أي خبر جديد. أليس المصير في هذه الحياة هو تسارع الأخبار؟

بينما كان انكسار الضوء يبشّر الليل بانصرام النهار كان الاحمرار الذي يلوّن الأفق يهمس أخبار النهار في أذني سواد الليل. وبينما كانت الأزهار المتفتّحة تبشّر الربيع بأخبار الثمار التي ستحملها الأشجار كانت الأوراق المصفرّة تضع خبر النهاية كما الجمرة في قلب الربيع.

كانت الأخبار دائما في حالة اضطراب للوصول إلى أحد ما، فهي لا تحب العيش في الخفاء، لا تريد الاختباء أبداً.

كان الخبر سريعاً، يذهب بسرعة الريح ويصل بسرعةٍ أيضاً. لا يبقى في مكان ولا يبقى في الآذان، لا يمكن حشره في قفص.. يخفق بجناحيه ويطير من مكان إلى مكان.

الخبر متدفّق كما المياه، ينفعل كلما تلفّظت به، وأما قطع طريقه فهو صعب جداً. كانت كل طلاسم الأخبار تحيط بهذا الخبر. بقي لأيام يتدفق من حي إلى حي، لم يبق بيت لم يمرّ عليه، فترك كلامه في الآذان وقلقه في الأفئدة في كل مكان وصل إليه. انكشف السر للجميع. طغى فرح انتظار طويل على قلوب كل من سمع الخبر.

Twitter: @ketab_n

ألا يقولون رجِلا الخبر سريعة ويصل إلى كل الأبواب؟! وجد الحزن مكاناً له في حلقها قبل قلبها. فجأة تزلزلت عواطف الأنوثة. هي التي قدّمتني لزوجها بنفسها، ألم تدب الغيرة في قلبها؟ لا شك بأن عدم الغيرة أمر مستحيل، فالكل يعلم بأن الغيرة نقطة ضعف الأنوثة. ربما تكون كذلك فعلاً. ولكن كانوا يقولون: «تغار المرأة بقدر ما تحب زوجها» هذا ما علّمونا إياه حتى الآن.

كانت سارة حبيبة القلب، لا شك أنها شعرت بهذه الأحاسيس وأنا أقاسمها إبراهيم، وعاشت ألماً كبيراً بسبب الحزن الذي خلقته حالة التقاسم وهي تفرّط بحصةً من محبتها. ولكن هذا الخبر الآن مختلف تماماً.

وهذا يعني..

صفّت مئات الأسئلة الغامضة في دماغها، ازداد القهر داخلها، طغى حزن الفقدان على قلبها.

إذن لقد تحقق الشيء الذي طالما رغبت به ولم تنله، أليس كذلك؟

تدفّقت الآن كلمات كثيرة، لم تكن ترغب بالبوح بها، إلى عالم الكلام. لم أكن أعلم بأنها تحشر في دماغها كلّ هذه الصفات السيئة بحقي، حرّكت دماغها فجأة لتصفّ الكلمات وبعد ذلك لتطلقها كلمة كلمة في وجهي:

- أيتها الجارية. أيتها المرأة التي لا تفهم الكلام.

هكذا إذن.

تلوّت أفكارها باضطرابات إحباط لا ترحم.

ستصبح أماً.

لم ترد التفكير.

هذه هي النتيجة التي كانت ترغب بها.

هي التي قدّمتني لحبيبها إبراهيم كي أنجب له طفلاً. لم تفكّر يوماً بأنني قد أصبح سيدة منزل مثلها لأنني جارية، حسناً، ما الذي جرى الآن؟

لا شك أنها نسيت أمراً، معرفة مدى صعوبة تقاسم الأمومة أثناء تقاسم الأنوثة. سكبت أحلامها البائسة على جسد الطفل الصغير. طفل

Twitter: @ketab_n

رضيع.. هو قطعة صغيرة من شفقة أمومة لطالما طلبتْها من ربها لسنوات متوجهة إليه بالدعاء، هو اتحاد قلب الأم مع قلب الأب، هو النور المرئي للزواج، وهو دفء العش وفرح البيت.

شعرت روحها ببرودة البيت الذي لم تستطع ملؤه بدفءٍ ينشره وجود طفل فيه، وصل هذا الخبر المؤلم إلى صلب أفكارها وإلى آخر نقطة في ذهنها.

- هاجر ستصبح أماً.

لم تستطع تقاسم الأمومة.

احمرَّ وجه سارة الأبيض بنيران الغيرة، وبينما كانت تمر بنظراتها المقهورة بيأس على وجه إبراهيم هبّت في ذهنها عاصفة مفعمة بقلقِ عدد لا متناهي من الأسئلة:

- هل ستحبها أكثر مني؟ هي ستصبح أم ولدك، وربما الرابط بينكما سيزداد قوة ويأخذ أبعاداً مختلفة.

كلما فكّرت سارة كان يزداد رجفانها. تسمّرت في المكان الذي تقف فيه، وأسندت رأسها على جذع الشجرة الضخم المستندة عليه، شردت بماضيها كغريق يقذف بنفسه إلى اليابسة. هربت من نسمات الخبر الباردة إلى دفء أيامها الماضيات. فالماضي صديق وفيّ يشد الإنسان إليه، يجعل المستقبل ينظر إلى الوراء. عندما يرغب الإنسان بالهرب إلى الماضي يصبح المستقبل متعب كالسباحة في بحر متلاطم الأمواج. الماضي ينقل الإنسان إلى عالم من الذكريات بينما المستقبل ينقله إلى عالم من الأحلام.

حاولت إيجاد أمها العجوز بين ذكرياتها، كانت تريد أن تفهم معنى التمسك بثوبها، وأن تركع على ركبتيها بجسد أرهقته السنون وأن تشكي لها همومها، وأن تحكي لها عن الآلام التي عانتها لكي تصبح أماً ويتمسّك ولدها بذيل ثوبها وعن الحزن القابع في فؤادها جرّاء توقها للأمومة، وأن تشرح لها شعور الوحدة الغريب الذي تشعر به والناجم عن بعد الأم عن ابنها، أرادت أن تحكي لها عن كل هذه الأمور.لم تقدّم لها الذكريات المنسيّة

Twitter: @ketab_n

شيئاً يُذكر، لم تستطع الوصول إلى الصفحات البعيدة من ذكرياتها المتعبة. ارتخت ذراعاها كما ارتخت أحلامها.

تمتمت بعبارات بائسة أفرزها حلم حركته مشاعرها المعلّقة على كلاّب اكتئاب قاتل:

- ستتمسك هاجر بأمومتها.

ستصنع من محبتها قماطاً.

ستملأ ذراعيها.

سيبتهج حضنها بالرحمة.

ستلفّ وليدها بحنانها.. وستقول لإبراهيم:

- خذ، هذا هو ولدك.

من يعلم، ماذا لو كان صبي..

سيناديها ولدها:

- ماما..

وسيتمسك بثوبها، وسيركض خلفها، ثم، ماذا لو كان شبيهاً بأبيه إبراهيم؟

تشبّهني سارة بالشجرة المباركة المكتنزة أغصانها بالثمار، شعرت بأنها شبيهة بالأرض القاحلة، آلمها العقم كثيراً، لم تستطع تحمل هذه الأفكار.

انهمرت بضع دمعات من عينيها، لم ترغب بأن يراها أحد وبسرعة مسحت الدمعات الصغيرة التي جرّت روحها إلى الخارج، وبدأت بالدعاء.

نظرت حولها بقهر وهي تجلس أمام إبراهيم المفعم بالشفقة. لم يريدا أن ينتبه أحد لما يفكران به، لملما عواطفهما ووضعوها في دنيا الأسرار. نهضت من المكان الذي كانت تجلس فيه وولجت إلى الداخل وهي تجر أقدامها التي تحمل تعب قرون..

نظرت حولها، كان النهار يلملم أذياله مفسحاً مكاناً للّيل.. داعب الليل حزن الأنوثة الغريب.

Twitter: @ketab_n

الهرب

حالي في الأيام الأخيرة يشبه الطقس، متقلّب ومتدفق.. إنني كمن يتعلّق بجناح مروحة. كلما تغيّر الجنين كان يجذبني إليه أكثر، أشعر بأنني متعلّقة بثيابه.

كانت الأيام تمر..

الأسابيع تطارد بعضها.

بينما كان يتضح وجود الطفل داخلي مع كل يوم يمرّ كانت سارة تُظهر مشاعرها. كانت سارة تنتقدني باستمرار، وفي كل لحظة تذكّرني بأنني جارية، كانت تفتح جبهة ضدي.

تُعطي الأوامر، تسيء إليّ، تطردني. أُصبت بحالة من الصمت كأن سكينة نزلت على روحي.

صمتّ..

صمتّ بقدر ما سيقال عني عبر العصور، صمتّ بقدر براءة الطفل الذي أخبئه في أحشائي، صمتّ لكي لا أجرح إبراهيم، لكي لا أمزّق قلبه المفعم بالشفقة والحنان بين امرأتين.

صمتّ لأنني أعلم أن أصحاب الكمال يجدون بالصمت كمالهم.

كلما كان يستمر صمتي كانت سارة تحوّل مشاعرها إلى كلام:

- أيتها الجارية، أيتها المرأة السوداء.

- كان موعد الولادة يقترب، ما زاد من تعب سارة أكثر وأكثر. فقد

Twitter: @ketab_n

كنت شابّة بقدر ما كانت عجوز. لم تعد روحي الشابة تحتمل توبيخ سارة وكلامها.

كانت سارة تعيسة وأما إبراهيم فقد كان حزيناً. كان إبراهيم زوجاً رحيماً وكان يعيش في مأزق بين زوجتين، ولم يكن يستطيع فعل أي شيء، كان مثقلاً بالحنان ومفعم بالحب لكلتينا، لم يكن ليجرح أو يسيء لأيٍّ منّا.

بالإضافة للحزن الذي كنت أشعر به كان حزن إبراهيم يزيد حزني حزناً، كنت أبحث عن حلٍ يريح إبراهيم ويريح سارة في آن واحد. دلّتني حالتي الحساسة والعاطفية التي أتتني بسبب الحمل إلى حلٍ جيد بدا أنه لا يوجد أي حل غيره.

فكّرت به أياماً. هل هذا هو الحل؟ كيف سأقوم به؟ كان القرار سهلاً ولكن التنفيذ لم يكن كذلك. كانت روحي تقول لي:

– هيّا ... انتابتني موجة من القلق ومرّت. فكّرت بإبراهيم. هل سيحزن؟ شعور آخر في داخلي لم يفسح الطريق لعواطفي الجياشة تجاه إبراهيم. قالت:

– لا لا لا تتراجعي عن قرارك... صوت آخر نبع من داخلي قال:

– متى؟. لكن روحي كانت على عجلة من أمرها، فقالت:

– غداً، فوراً، في أقرب وقت.

طلع الفجر، بدأ الشفق يداعب سكرة الليل بيده الحمراء. في ذاك اليوم استيقظت قبل الجميع، داعبتْ وجهي نسمات الصبح الدافئة، كانت السماء صافية ورائقة، بدأت الحياة تدبّ في الوجود وتزداد حيوية الأشياء. راقبت بعض الطيور التي كانت تحلّق في الفضاء. وقفت مدّة من الوقت أراقب الأشياء بروح مفعمة بالسعادة، كنت أعلم أن حالتي هذه لن تستمر طويلاً. بعد قليل ستستيقظ سارة وتبدأ كعادتها بالإساءة إليّ. ستقول لي:

– اغربي من هنا. اذهبي من هنا مع ولدك قبل أن تلديه. لا أريدك لا أنت ولا ولدك.

Twitter: @ketab_n

كم هو صعب أن تكون شخصاً غير مرغوب فيه، روحي تقول اذهبي وقلبي ينزف على إبراهيم، يقول لي اصبري قليلاً فقط. كنت أملك الصبر ورغبتي بالذهاب لم تكن بسبب نفاذ صبري بل كانت نابعة من بحثي عن حل.

اتّخذت قراري. تحرّكت وأنا أشعر بصعوبة تنفيذ القرار الذي اتّخذته. فكرت: هل أذهب غداً؟ ولكن من الأفضل أن أنفّذ قراري فوراً. كنت خائفة وقلقة، لأول مرّة أجد هذه الصعوبة باتّخاذ قرار يخصّني. قلة الحيلة تملّكتني. فكّرت مرّة أخرى بما يجب عليّ فعله. لم يبدو لي أي حلّ آخر، قلت ربما ينطفئ غضب سارة قليلاً وتهدأ إن ابتعدت لفترة عن هذا المكان. يجب أن أذهب لفترة من الزمن. انتظرتٌ خطواتي مترددة بين الذهاب والبقاء. ألمُ الخطوة الأولى أدمى فؤادي. وبعد ذلك جاءت الخطوات التالية.

ذهبت.. هل هذا ذهاب أم هروب من الإساءات والتوبيخ؟ الثاني هو الأصح.

هناك معانٍ عديدة لاسم هاجر أولها الهروب. إذن ما جرى أن الاسم انعكس على المصير.

ليس لدي مكان أذهب إليه ولا أحد ألجأ إليه ولا قريب أدق بابه، إلى أين سأذهب؟ أول مرّة أشعر بألم الوحدة واليتم. تحوّلت الغربة إلى جمرة استقرت بداخلي. سرت كالشريدة، لا أعلم ما الذي ربط لساني وجفف حلقي أهي الصحراء أم اليتم..

وصلت إلى طريق «شور»، التعب يغزو رجليّ واليتم يغزو قلبي والعطش عبّر عن نفسه على لساني، كنت لا حول لي ولا قوة، الشيء الوحيد الذي كنت قادرة على فعله هو تلك الدمعات التي تذرفها عيناي. هذا ما كنت أفعله عندما كان يشتد غضب سارة، فقد كان يريحني، كأنني كنت أمسك همومي من ذراعيها ثم أحمّلها داخل تلك الدمعات وألفظها إلى

Twitter: @ketab_n

الخارج. انتبهت إلى أنني بكيت كثيراً، كنت أجد صعوبة في التنفس بسبب حرقة تلك الدموع، حُبست غصة البكاء في حلقي برهة من الوقت. حين ينتهي الأمل ينتهي الألم والدموع أيضاً، وهذا ما كان. نظرت حولي بيأسٍ، كان المكان خالياً تماماً، قلبي محمّل بكتائب من الدعاء. كانت تهب عواصف قلب جريح مليء بالآهات. حطّت نظراتي على نبعٍ، سُررت كثيراً، نبع أمامي في وقت يحرق فيه العطش جوفي. ارتحت كثيراً كأن هذا أول إشارة. فهمت ذلك أن هذه أول مواساة من الله. هرولتْ رجلاي مسرعة نحو النبع، اتّحدت روحي والماء. شربت حتى الارتواء تركت يديّ الجافتين ووجهي الذابل لسحر الماء، انطفأت شعلة الحريق في عينيّ ورمّدت جمرة النار في حلقي. هدأت نفسي.. ارتحت.

جلست عند النبع، ظلّلت الشجرة الموجودة جانب النبع روحي، سمعت خرير الماء كصوت صديق يداعب قلبي، الماء أيضاً، في إحدى جوانبه، صديق للإنسان، عندما كنت في قصر فرعون أيضاً كان النيل كيد صديق، طويلة وضخمة، تمتد لي. كلما كنت أشعر بالملل كنت أنظر إلى النيل، كنت أستغرق بجريان مياهه الساحرة الرقيقة الدافئة. كنت أشعر بأمل التعلّق بالحياة في صوته الرخيم وفي طلاسمه الباعثة على الحياة. وهذا النبع أيضاً أعطى جسدي المتعب وروحي التي فقدت أملها إشارات الأمل بالحياة فأنعش جسدي وروحي أيضاً. حدّقت بخضوع الماء للتراب وجريانه في ثوبه، وبصبره أثناء الجريان فيه. فجأة انتصب أحد ما أمامي، خفت، كان غريباً، كيف لم أنتبه لوقع أقدامه على الأرض، من أين جاء وكيف؟! منذ برهة فقط لم يكن أحد موجود هنا، نظرت إلى الغريب بخوف.

حاصرت نسمة خوف باردة قلبي الذي كان منتعشاً بصوت الماء. بداية أصاب الخوف قلبي وبعد ذلك امتد إلى عينيّ، تلفّتُ بحيرة عينيّ اللتين تراكم الخوف فيهما وبقلق ضعف المرأة الوحيدة، تسمّرت في مكاني كمن يأمل بالنجدة، أخذ الكلام نصيبه من الخوف.

Twitter: @ketab_n

كل ما في هذا الغريب يبعث على الأمان، حكيم وحليم، ذهب خوفي خلال لحظة، أمرٌ غريب، إذ كيف لإنسان أن يشعر بالأمان والطمأنينة لرجلٍ منذ قليل فقط كان مبعث خوف بالنسبة له، لم أدرك سبب تغيّر مشاعري المفاجئ، امتلأ قلبي باحترام معنوي له.

قدّم الغريب البشارة بكلام يريح قلبي ويُذهب الضيق الذي بداخلي:

- عودي إلى منزلك وأنجبي ولدك، الولد الذي ستلدينه سيكون اسمه إسماعيل. لقد رأى الله الألم والعذابَ الذي قاسيته وسمع شكواك، ستذهبين أنت وولدك من هنا وستستقران في مكان غريب

- من يكون هذا الرجل؟ من أين يعلم الآلام التي عشتها؟ صار لدي فضول لمعرفة هذا الشخص الذي يواسيني. سألته بصوتٍ يرتجف بانفعال من يريد أن يعرف شيء:

- من أنت؟ فقال الغريب:

- أنا الملاك الذي أرسله الله. ثم اختفى.

أتى فجأة وفجأة ذهب، ولم يبق من هذه الرياح المعنوية سوى رائحتها الطيبة التي تملأ المكان.

تلقيت البشارة.

هذا يعني أنني سأبتعد عن سارة.

هذا يعني أن هذه الآلام ستنتهي. سقطت عيناي اللتان انفتحتا بحيرتان على الماء.

كان النبع يجري.

تلقيت البشارة عند الماء، الماء عزيز والولد الذي سيأتي سيكون عزيزاً كما الماء.

تدفقت إلى البيت كما الماء، كانت روحي مفعمة بالراحة والسعادة، لم أعد أفكّر بسارة أثناء عودتي إلى البيت.

(.........)

Twitter: @ketab_n

لم أكن أفكّر بأي شيء سوى بولدي الذي جاءت البشارة فيه وبجبرائيل الذي نقل البشارة.

عجباً، هل كان جبرائيل يريد مواساتي أم مواساة الطفل الذي أثّرت عليه روحي الحزينة. لم أعرف.

هذه أسرار السرّ الأزلي.

Twitter: @ketab_n

القرار

عدنا مجدداً نعيش في بيت واحد. كنت أنتظر مجيء ولدي إلى الحياة بينما كانت سارة تضع خططاً لأمور أخرى. باتت في الأيام الأخيرة وكأنها تعيش في الماضي، نسيت نفسها وتمسّكت بالماضي. هل هذه هي علامات الشيخوخة أم هي فقدان الأمل بالمستقبل؟ كان واضح أنها تشعر بالإحباط والانهيار مع ذكريات الماضي المنسيّة. كان من الصعب أن تعيش بهذه المشاعر، كنت أشعر من زمن بأنها تبحث عن حلّ، إن وضع سارة الجدي يخيفني جداً، رحت أردد الدعاء لكي ترحمني وترحم ولدي.

كثيراً ما كانت سارة تتحدث مع إبراهيم عني وعن ولدي. والآن يتحدثان من جديد، سارة غاضبة وأما إبراهيم فقد كان حزيناً. هاجت سارة وازرقّت العروق في جبينها. كانت توصل لإبراهيم فكرة غزت مشاعرها منذ زمن بعيد:

- ليذهبا، ليذهبا إلى مكان بعيد.

أكّدت القرار الذي اتّخذته، تمسّكت روحها بأدعية تلبّي رغبتها:

- ليذهبا.

كنت أعلم ما الذي تريده في قرارة نفسها.

- ليكن مكان بعيد جداً، لا الرياح تجلب مخاوفهما ولا الناس يجلبون أخبارهما. ليذهبا إلى أماكن موحشة، فلا العبيد تسمع آهاتهما ولا أحد يسمع همومهما.

ليكن مكان بعيد بحيث لا يشعر إبراهيم بأبوته ولا يرى ابتسامة ولده

Twitter: @ketab_n

ولا يراقب خطواته، يجب على ولد هذه المرأة ألاّ ينادي إبراهيم بكلمة «بابا»..

ليكن مكان بعيد، طقسه غير هذا الطقس وماؤه غير هذه الماء فلا يخفق طيرٌ بجناحيه في ذاك المكان.

راقت هذه الأمنية لسارة فراحت ترددها لنفسها عدد من المرات «ليذهبا».

صمتت سارة.

صمت إبراهيم.

قاطعهما الكلام وانكسرت الكلمات، تباعدت أحاديثهما.

وجدت سارة أن الوقت لازال مبكّراً على تنفيذ أفكارها. ليولد الطفل أولاً وليملأ العالم بجسده الصغير وليلفّ العالمُ الطفلَ بالمحبة، وليجذب الطفلُ حنان إبراهيم، وقتها سيصبح تنفيذ قرارها أكثر سهولة. قالت في قرارة نفسها سأشرح في كل لحظة لإبراهيم مدى الألم الذي يسببه لها وجود طفل، وجود طفلٍ يذكرها دائماً بأنها ليست أماً وسيكون بإمكانها شرح الآلام التي تسببها لها الغيرة بشكل أفضل.

كان لا بد من الانتظار، وهي التي تستطيع أن تصبر دهراً.

قد يكون طرد إنسان ما متنافياً مع الرحمة ولكن طرد شخصين ليس كذلك، تستطيع الذهاب مع وليدها. وافقت على ذلك قائلة:

- نعم، هذا أكيد.

فكما اتّخذت سارة قرارها بزواجنا ستتخذ هي نفسها قراراً بفراقنا. سُرّت سارة وارتاحت للقرار الذي اتخذته وتمتمت قرارها أكثر من مرّة بينها وبين ذاتها.

- ليذهبا..

بينما كان الليل يؤكد على قرار سارة في عالمها المشتعل بالغضب بقشعريرة غريبة كانت برودة القرار تطغى على الأجواء.

حدّق إبراهيم بحنان في وجه زوجته المصفرِّ من الألم.

Twitter: @ketab_n

عشرة

كان يوماً جميلاً. نحن في أجمل الشهور، محرّم.. صادف التاريخ العاشر من محرّم.

استيقظت بصفعة ألم أتت من أعماقي. كانت بشارةً مؤلمةً.. فكل فرحٍ يسبقه رسول ألم وكل بشارة توقظ الإنسان من غفلته بشعور مؤلم، لم أكن انظر إلى الآلام بل إلى نتائج هذه الآلام. تأمّلت خيراً.

اصطفّت حبّات العرق على جبيني كما يُقدَّم الماء للتراب وكتصدّع نواة وتحولها إلى ثمرة على غصن شجرة.

كانت الآلام تطغى عليّ بفواصل محدّدة، فهمت أي بشارة تنتظرني، فاستغرقت بالدعاء لكي تكون خيراً ويكون وقعها على روحي أكثر سهولة.

قلت في قرارة نفسي: «عشرة». كان للأرقام طلاسمها، كانت الأرقام حبلى بالأسرار وكانت أيضاً مفاتيح ستارة الغيب. تسلّحت بالسر الكامن في «عشرة» محرّم. قلت: «الخلاص» وتذكّرت الذين وصلوا إلى الخلاص في هذا اليوم. ففي مثل هذا اليوم قُبلت توبة أبينا آدم، وفي مثل هذا اليوم أيضاً كُتب لأبينا آدم وأمنا حواء أن يلتقيا. وفي مثل هذا اليوم استقرت سفينة النبي نوح على اليابسة. وتذكّرت شيئاً آخر، ففي مثل هذا اليوم ولد حبيبي إبراهيم.

(.....)

Twitter: @ketab_n

فيما بعد سيقول المتحدث باسم الماضي الذي يسمّونه تاريخ، وهو يعدُ هداياه المباركة: في العاشر من محرم..

ولد النبي إسماعيل.

النبي إبراهيم صار أباً.

قبضت هاجر على سر الأنوثة.

جاء نور الكائنات.

نضجت الثمرة.

Twitter: @ketab_n

الخروج من بابل

كنا أنا وسارة نجلس وجهاً لوجه، كان الصمت يتحدث بيننا، جاءت جارتنا التي تزورنا دوماً، طغت حالتنا عليها فجلست بصمت. نظرت إلى وجه سارة الشارد فتألّمت لأجلها، ولأن الهموم تصغر عندما يتم تقاسمها مع شخص آخر وتخف حين البوح بها فقد أحبّت جارتنا أن تتدخّل، فقالت:

- سارة، لِمَ أنت حزينة إلى هذا الحد؟ إنك زوجة إبراهيم الوحيدة، ولن يهزّ سلطنتك أي ولد.

فقالت سارة:

- أكيد، أكيد يا صديقتي.

كان الحزن بادٍ على عيني سارة وتعب السنين يخيّم على وجهها وخطوط ألم تكسّرت عند حواف شفتيها. كانت سارة تحب جارتها هذه. نظرت إلى وجه صديقتها فانشقت شفتا سارة الصامتتان عن الكلام منذ أيام:

- عاطفة الأمومة لدي لا تعرف الهدوء أبداً، ليس باليد حيلة، فأنين الأمومة يضج في داخلي، أسمع استغاثات طفل لم يخرج من أحشائي، الأمومة في داخلي متكسّرة..

نظرت المرأة بحزن غريب إلى وجه سارة الذابل وهي تشعر بأنها لم تستطع مواساتها، لامست وجعها لكنها لم تستطع إيصال العلاج لتهدئة هذا الوجع.

Twitter: @ketab_n

الحزنُ سرّ الاتحاد، لا يمكن تجزئته لكي يتم تقاسمه، ولهذا السبب فإن الله يرمي في قلوب عبيده الذين يحبهم حزن انعكاس الاتحاد على هذه القلوب، الذين يتمسكون بالحزن يسلكون طريق العبودية لله خطوة خطوة.

كانت الجارة تنظر إلى سارة بحزنٍ، أما سارة فقد كانت مستغرقة بأفكارها، عادت بذكرياتها إلى أعماق روحها. كأن الجارة قبضت على الماضي وهي تنظر إلى سارة بعين ملؤها حب الكشف الباحث عن سبب الهموم والرامي إلى معرفة ما يجري:

- آه، لو تعلمين كم كانت جميلة تلك الأيام.

إبراهيم، رسول اتخّذه الله خليلاً، ونمرود عدو الله اللدود، فنمرود لم يكن يريد معرفة الله ولا تعريف الآخرين به، من هو إبراهيم هذا ليكون منافساً له وهو الذي يقدّم نفسه للشعب على أنه رب.

فكّر بالأمر.

يجب ألاّ يبقى إبراهيم في الوجود.

صدر قرار الموت.

كيف يجب أن يموت؟ يجب أن تكون ميتة مؤلمة بقدر حقده على رب إبراهيم، أُرفق قرار الموت بشرح لطريقة القتل.

- سيُلقى في النار.

طالما أن إبراهيم يقول بأن الذين لا يؤمنون بربه سيُلقون في النار فستكون عقوبة من لا يطيعون حاكمهم على شاكلة العقوبة التي ينفّذها رب إبراهيم. يجب أن تكون ناراً كبيرة لتكون عبرة لكل من لا يعتبر. لتشتعل لأيام وليزداد سعيرها كل يوم أكثر وأكثر وليظهر دخانها من أبعد المسافات وليعلم الجميع أي عذاب ستسببه.

أصدر نمرود أمراً إلى شعبه:

- ليُجمع الحطب على الفور.

Twitter: @ketab_n

كلٌ عرف دوره، منهم من هرع إلى جمع الحطب ومنهم من بدأ يملأ الماء. استمر جمع الحطب عاماً كاملاً.

كانت النار قرار الفصل بين الصديق والعدو، فبينما كان قلب الصديق يحترق من الألم كانت طقوس العيد تملأ قلب العدو من شدة الفرح.

ذهب فضول الجارة وخيال سارة باتجاه النار. اقتربت الجارة من سارة وكأن لسان حالها يقول: «اشكي لي همّك يا صديقتي»

كأن سارة ترمي، من خلال صمتها، إلى زيادة فضول الجارة. غيّرت جلستها، لملمت إحدى رجليها بينما مدّت الأخرى المصابة بالنمال ثم أخرجت من رئتيها بضع سعلات لم تكن الغاية منها إراحة النفَس بل إطالة الوقت. بدأت حديثها بالقول:

- كم كانت جميلة تلك الأيام.

بدأت نقاش حول النار التي أُلقي إبراهيم فيها، لأن تلك النار كانت ضخمة لدرجة أن مجرد الاقتراب منها كان مستحيلاً. غير أن نمرود ورجاله لم يكونوا يعرفون كيف سيلقون إبراهيم على جبل النار. أشعلت النار أيضاً فتنة فيما بينهم، وعندما احتدم النقاش واستعدت الأيدي للقتال جاء رجل إلى القصر. رجلٌ لم يكن أحد يعرفه ولم يكن أحد قد رآه من قبل. قال بصوت كمن يصدر أمراً:

- انتظروا لحظة.

استجاب الجميع لأمر هذا الرجل الذي لم يكن أحد يعرفه أو رآه في أي مكان وصمتوا. قال الرجل لهم بأنه وجد حلاً من أجل إلقاء إبراهيم في النار مضيفاً بأن هذا الأمر لن يتم إلا من خلال استخدام آلة.

اجتمع نمرود ورجاله حول الرجل باحترام وأحضروا المعدات التي طلبها، وبعد فترة وجيزة كان كل ما طلبه جاهزاً.

اتحد نمرود ورجاله حول الرجل بإعجاب وحب. قال:

Twitter: @ketab_n

- حسناً.

كان الجميع ينتظرون تتمة حديث الرجل وهم ينظرون إليه بإعجاب. رمق الرجل الجميع بغرور من أنجز عملاً بنجاح، ثم قال:

- سنضع إبراهيم في هذه الآلة ثم سنقذفه إلى النار.

الوجوه التي أغلقت أبوابها في وجه الإيمان والقلوب التي أدارت ظهرها لله والأجساد التي رفضت إطاعته نظرت بإعجاب ومحبة إلى الرجل وصفّقت له.

هل اختفت الشمس في ذاك اليوم من شدة خجلها أم أن حجم النار الضخمة قد أخافها، لا أحد يعلم. المنجنيق الذي أوجده الشيطان أطفأ نار الفتنة التي استمرت أياماً في قصر نمرود.

كأن نظرات الجارة موجودة في تلك النار التي تشتعل كالحمم. سألتها بانفعال وبراءة طفل:

- ألم يدعو إبراهيم ربَّه كي ينقذه من النار؟

أفهمت سارة جارتها الساذجة بأن سؤالها خطأ ثم نظرت إليه بطرف عينها وقالت لها كلمة كلمة:

- نحن من يدعو الله، لأننا غالباً ما ننسى أن الله يرانا في كل لحظة وبأنه لا يجري شيء إلاّ بإذنه. إن لحظات دعائنا هي وسيلة تذكّرنا بما نسيناه، فالدعاء يعني أن هناك من يراني وهناك من يسمعني، وأما إبراهيم فإنه يعلم في كل لحظة بأن ربه يراه. عندما يصل العظماء إلى اليقين، يُصبح اليقين في الدعاء، وتصبح كل لحظة من حياتهم دعاء، يطلبون منه كل ما يريدونه مع كل نَفَس يطلقونه.

بينما كانت الجارة تنظر إلى وجه سارة بإعجاب كانت تحاول إدراك معنى اليقين الموجود في الدعاء.

Twitter: @ketab_n

الملائكة يبكون

كلما كانت سارة تتكلم كانت أساريرها تتفتح أكثر، كان إسماعيل ينام في حضني. نظرت سارة إليه ثم نظرت إليّ. كأن إسماعيل ذكّرها بالملائكة. هربت مجدداً إلى تلك الأيام، تابعت حديثها للجارة عن ذاك اليوم الذي أُلقي إبراهيم فيه في النار:

- ثمة أنواع للنار كانت تشتعل في المكان، النار المادية وإلى جانبها نار إبراهيم المضطرمة في قلوب المؤمنين، وأما فيما بين الكفار فقد كانت نيران الفتنة مشتعلة كالحمم. بينما كان يجري ما يجري على الأرض كانت حال أهل السماء مختلفة جداً، كان الملائكة مندهشين، فبكوا وهم يتوسلّون لله قائلين:

- يا ربنا سيُلقى خليلك في النار اسمح لنا بمساعدته. فأرسل الله ثلاثة ملائكة، نيابة عن كل الملائكة، لمساعدة إبراهيم، قال الملاك الأول لإبراهيم:

- يا إبراهيم، الرياح تأتمر بأمري. أعطني أمراً لكي أطفئ هذه النار وأبعثرها برياحي. كان ذكر الله على لسان إبراهيم:

- حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال الملاك الثاني:

- المياه تأتمر بأمري، أعطني أمراً لأغرق النار وأطفئها بمائي. كان ذكر الله على لسان إبراهيم:

- حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال الملاك الثالث:

Twitter: @ketab_n

- يا إبراهيم إن التراب يأتمر بأمري، إن أردت سأجعل التراب يبتلع النار. كان ذكر الله على لسان إبراهيم:

- حسبنا الله ونعم الوكيل. نظر إبراهيم إلى الملائكة الثلاثة وكشف خليل الله عن سرّه:

- لا تتدخلوا بيني وبيني صديقي، لن يحدث إلا ما يأمر الله به، فإن كان مراده إحراقي بالنار ويرى بأنني مقصّر فسأصبر وإن أنقذني سأحمده وأشكره.

هزّت الجارة برأسها تعبيراً عن أنها فهمت ما قيل، أما سارة فقد كانت مدركة أنها لم تفهم الكثير مما قالته لها، أردفت تقول:

- أُحضر إبراهيم لكي يُلقى في النار، اجتمع كل الشعب ليشاهد ما يجري. المؤمنون يبكون وغير المؤمنين من شدة فرحهم يلهون ويمرحون..

جلس نمرود على عرشه في المكان المخصص له، وإلى جواره خمسة آلاف جندي أخرجوا سيوفهم من غمدها متأهبين للقتال. وأما في الساحة فقد كان هناك سبعين ألف جندي على أهبة الاستعداد لمنع إبراهيم من الهرب.

أُحضر إبراهيم إلى الساحة مكبّل اليدين ومشى نحو المنجنيق الذي وُضع بالقرب من نمرود، وأمام المنجنيق كان يقف الشيطان، أجلس الجنود إبراهيم في المنجنيق.

كانت الأمواج تتلاطم بأشكال مختلفة في قلب كل شخص، وكلّ واحد يشعر بأحاسيس مختلفة. أما أنا فقد كنت أفكر كيف سأعيش دون إبراهيم وكيف سنعرف ربنا من دونه.

حان الوقت، كلّ شيء كان جاهز. كنت وصديقتي نشاهد ما يجري من الشرفات السفلى للقصر، فقد كان والدي هاران الوزير المقرّب من نمرود.

لا أملك شيء سوى الدموع التي في عينيّ والدعاء الذي في قلبي. تجمعت نساء القصر في الشرفة العليا يغنون من أجل إدخال السرور إلى قلب نمرود.

Twitter: @ketab_n

كان أهل السماء، بإذن من ربّهم، يشاهدون الاحتفال الكبير الذي أقامه نمرود لكي يُلقي إبراهيم في النار. تجمّعت الملائكة صفاً صفاً، رضخوا لحكمة الله وينتظرون ما سيحصل.

كان نمرود ينتظر.

كان المؤمنون ينتظرون.

كان الشيطان على رأس المنجنيق ينتظر.

إبراهيم داخل المنجنيق، تجمّدت السماوات أمام النار، العيون تارة على النار وتارة أخرى على إبراهيم. المؤمنون سلّموا أمرهم لله وتوكلوا عليه. صمتٌ مطبقٌ ونمرود ورجاله منتشون، التصفيق مشتعل.

الشيطان واثق بنفسه، سحب المنجنيق وقذف إبراهيم. استمرت الصيحات والتصفيق لساعات.

طار إبراهيم باتجاه النار، ولم تعد العيون تراه.

في الوقت الذي كان إبراهيم على وشك السقوط في النار أرسل الله رسول الملائكة جبرائيل لمساعدة إبراهيم، يمسكه جبرائيل ويسأله:

- ما الذي تريده يا إبراهيم؟

- نظر إبراهيم إلى جبرائيل، تمسّك بإيمانه وبثقته بربه وبصداقته وقال:

- لا تتدخل بيني وبين صديقي..

- رفض تدخّل الملاك العظيم؟

- لأن الذي ألقاه في النار هو ربه ولن يتحقق شيء دون إرادة الله. أما الآخرون فهم أسباب فقط، يعلم ويرى بأن الذي ألقاه في النار هو صديقه، الصداقة الحقيقية لا تتطلب وساطة، مهما فعل الصديق الحقيقي لا يجب اللجوء إلى سوء الظن به، الصداقة الحقيقية لا تتقاسم سرّ الصديق مع أي صديق آخر.

Twitter: @ketab_n

في اللحظة التي رفض فيها إبراهيم وساطة إبراهيم اتّخذه ربه خليلاً له.

هل من السهولة اكتساب صديق؟

نقول لنكن أصدقاء ونحن نفكّر بتقديم الضيق للصديق، نقول ليعانِ الصديق حالة الضيق التي نعيشها. لا نرغب بأن نعيش حالة الضيق التي يعيشها صديقنا علماً بأن الصداقة تُقاس بمدى تقاسم الأصدقاء همومهم فيما بينهم. بعد أن رفض إبراهيم وساطة جبرائيل خاطب الله النار قائلاً:

- يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

ازداد فضول الجارة أكثر وأكثر، وعندما امتزج انفعالها مع بساطتها صارت توجّه الأسئلة لسارة كطفلٍ يتمسّك بثوب أمه طالباً منها أخذه إلى مكانٍ يريده:

- كيف خرج إبراهيم من النار؟

تابعت سارة حديثها بصوت تكاد لا تسمعه جارتها:

- انتظر الأصدقاء أياماً أمام النار بلا حول ولا قوة ولسان حالهم يقول عندما ينطفئ جبل النار هذا هل سيبقى أثر لإبراهيم.

غيّرت النار قاعدتها لكي لا تحرق إبراهيم، بعد أسبوع رأى الناس كيف استجابت النار لأمر ربها بأن تكون سلامة على إبراهيم ولم تؤثّر حتى على ثيابه.

صارت النار حديقة من الجنة.

- رأى ملك كلدة نمرود هذه المعجزة وكيف أن النار لم تحرق إبراهيم فقال له:

- اذهب، غادر هذا مكان.

كان إبراهيم قد تلقى أمراً من ربه بخصوص ترك هذا المكان، وفي صباح ذاك اليوم أخذ إبراهيم المؤمنين به وغادر بابل. وأنا كنت برفقته في

Twitter: @ketab_n

ذاك اليوم. لم نأخذ معنا أي شيء وتركنا خلفنا حدائق بابل وعرائش العنب الجميلة التي ترك إبراهيم بركاته عليها.

أخذت سارة نفساً عميقاً تابعت حديثها:

كان إبراهيم دائماً يقول: «أفضل الأوقات التي استمتعت فيها في حياتي كانت تلك الأيام السبعة، أحضر جبرائيل من الجنة ثوباً وبساطاً، ألبسني الثوب ومد البساط على الأرض وأجلسني عليه، ثم جلس هو أيضاً ورحنا نتجاذب أطراف الحديث».

نظرت الجارة إلى وجه سارة المفعم بالوقار دوماً وسألتها:

- كيف تخلّوا عنك؟ كيف سمح والدك ونمرود لك بالذهاب؟

قالت سارة وهي تتذكّر حيوية تلك الأيام:

- كنت مصرّة على عدم البقاء داخل ذاك الكفر مهما كانت النتائج. هربت منهم سراً وقبل أن ينبلج الفجر كنت بين المؤمنين الذين سيذهبون مع إبراهيم.

تركتُ أمي وأبي والسلطنة والحياة الرغيدة، تركت كل شيء خلفي.

خرجت من بابل.

عندما لفظت كلمة «خرجت» نظرت إليّ بطرف عينيها، أو هكذا بدا لي، لا أعلم. رجف قلبي بحزن غريب، داعبت وجهي براءة أنفاس إسماعيل النائم في حضني.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

دعاء هاجر

سارة شاردة في هذا اليوم، ولكنها كانت أكثر فرحاً قياساً بالأيام الماضية. كيف عرفت ذلك؟ عرفت لأنها لم تغضب مني اليوم. أشبكت أصابع يديها وأسندت بهما ركبتها، أخذت نَفَساً عميقاً. هذا ما كانت دائماً تفعله قبل أن تهمّ بالحديث.

كانت الجارة تنتظر بفضول. استندت سارة على ظهر الماضي وراحت تقرأ في دفتر الذكريات. كم مرّة سمعتُ من سارة حديث الرحلة هذه، وكنت في كل مرّة أشعر بالمتعة وأنا أستمع. وفي هذه المرّة أيضاً جلست في زاوية لأسمع حديث سارة لجارتها:

- بعد سفر طويل مع المؤمنين بإبراهيم وصلنا إلى سورية، استقرّينا في منطقة حرّان، حرّان لا تشبه بابل أبداً. لا يوجد أجمل من هواء بابل ولا أجمل من مائها وعرائشها وحدائقها، ولكننا كنا ندرك أن بَرَكة إبراهيم كانت تحل في أي منطقة فور وصوله إليها. وهذا ما جرى هنا.

كان إبراهيم في الثامنة والثلاثين من عمره. وأنا كنت في العشرين. أمر ربنا بزواجنا، فتزوّجني إبراهيم في حرّان. بقينا في حرّان خمسة عشر عاماً. ذات يوم أخبرنا إبراهيم بأنه تلقى إشارةً من ربّه بمغادرة المكان، استعد كافة المؤمنين وبدأت رحلة خروج جديدة.

أخبرنا إبراهيم بمسار الطريق الجديد:

Twitter: @ketab_n

- سنذهب عبر البحر.

استمرت الرحلة أياماً طويلة.

الصحراء في كل مكان، كأن الشمس تُمطر حمماً، برد الليل ينخر العظام لدرجةٍ تجعلك تشتاقين للشمس، أنهك التعب الجميع وانطفأت قدرة العجائز على التحمل. جدار صمت هذا المسير انكسر ببكاء الأطفال وأنين العجائز.

- يا إبراهيم، متى سينتهي هذا المسير؟

كان التعب بحجم الصحارى والصبر كما النجوم، نظر إبراهيم إلى الصحراء ثم نظر إلى رجلي العجوز التي وجد التعب طريقه إليهما فأنهكهما وبدأ بالدعاء. من خلال الدعاء أوصل وصيته إلى العجوز أن اصبر قليلاً.

نظر العجوز بعينين تبحثان عن الأمل وكرر سؤاله:

- يا إبراهيم، أين هي مصر؟ تقول بأننا سنصل إلى البحر، انظر لا زلنا نسير في الصحراء.

أمسك إبراهيم بكل حنان يدي العجوز اللتين جفّفتهما الصحراء، وقال ما قدّره الله على قوله:

- هو من يريد للشيء أن يكون، لا شك أن هناك حكمة في أن يوصلنا الله إلى هذه الأماكن.

جعلت هذه المواساة العجوز يتمسك بدنيا الحكمة الخفية.

صمتت سارة. أتعبها الكلام. كانت ترغب بترك الكلام وأن تعيش بمفردها في حديث المشاعر، تريد أن تبقى وحيدة.

والجارة كانت تنظر إليها بنظرات كأنها تقول لها أليس هناك من مزيد. أعتقد أن الجارة أدركت تعب سارة فهمت بأن ذكرى تلك الأيام الماضيات قد أحزنتها. كانت سارة تتألم من داخلها. سحبت آهً عميقةً، وأردفت تقول:

Twitter: @ketab_n

- كانت تلك المشقة والعذاب وكل ذاك الطريق الذي قطعناه والذهاب إلى مصر كل ذلك عبارة عن رحلة متعبة للوصول إلى الماء. ولكن كل ما جرى كان من أجل هاجر، فلقد ذهبنا من أجل جلب هاجر. كل هؤلاء الناس قد خرجوا من أجل دعاء هاجر.

كان انزعاج سارة يزداد كلما استمرت بحديثها، كأنها كانت تقول ليتنا لم نذهب. فكّرت بينها وبين ذاتها:

- عجباً هل كان بإمكاني منع إبراهيم، هل كان بإمكاني منعه من الذهاب في الصحراء؟

هي تعلم أن ذلك مستحيلاً، فلا يمكن للنبي أن يفعل إلاّ ما يقوله له ربُه.

أسندت سارة ظهرها. كانت بشرتها البيضاء تحمرُ عندما تعصّب، كانت تشعر بأن كل دمها تجمّع في وجهها ليخرج منه. امتلأ وجهها بالدم والنار، بعد أن أصلحت جلستها نظرت إلى جارتها وقالت:

- نعم هذا ما جرى يا صديقتي.

مصر أحرقتنا.

صارت مصر بلاد العذاب

سببت لنا ألماً بحجم ألم الطريق إليها. فقالت جارتها:

- وما هو السبب؟.

بدأت سارة كلامها كمن يأكل لقمة من الماضي وراحت تحدثها عن ذكرياتها في مصر.

- أخيراً وصلنا إلى مصر. ولكننا قبل وصولنا إلى مصر كنا قد عشنا فراقاً آخر، فلقد فارقنا الحبيب لوط ابن أخ إبراهيم الذي يحبّه كثيراً وتركناه مع بعض المؤمنين لقوم مسعورين. كانت حياة إبراهيم قائمة على الفراق الدائم، كان يفارق الذين يحبهم فرداً فرداً.

هذا الاكتشاف أعجب سارة، كان لإبراهيم مصير قائم على الفراق

Twitter: @ketab_n

الدائم. «يمكن أن يفارق هاجر أيضاً بسهولة، ويفارق إسماعيل أيضاً» هذا ما كانت تُفكر فيه. خلف جدار من الصمت كانت تحدّث نفسها:

– نعم سيفارقها. يجب أن تذهب وابنها..

إما أن أبقى أنا هنا أو يبقيا هما. وهما اللذين أتيا بعدي فليذهبا هما.

أدركت الجارة أنها غضبت، أدركت الصراعات الدائرة داخلها من خلال صمتها. فقد كانت تبدلات لون وجهها تشير إلى مدى غضبها. كان واضحاً من خلال أنفاسها العميقة والمتواترة أنها لا تفكر بأشياء سارّة.

كانت الجارة الذكية تعلم أن ضربات قلب الإنسان تزداد سرعة عندما يفكّر بأشياء سيئة، وأن ردود فعل الجسد الفيزيائية على الأفكار السيئة تؤدي إلى بعض التغيرات، وبأن الأفكار السيئة مدمّرة.

قالت الجارة بتردد:

– يا سارة، لقد تغيّرتِ خلال الأيام الأخيرة كثيراً. كأنك كبرت عشرين عاماً. ذهبت تلك الحيوية وذاك البريق من وجهك، صرت أشتاق لسارة الجميلة المحبوبة. لا تحزني كل هذا القدر من الحزن.

لم تجب سارة بأية كلمة، كانت تعلم أن الحزن يملأ نظراتها، وكلما فكّرت بشيء ينعكس على وجهها. شردت سارة بأفكارٍ أخرى، أدركت الجارة أن سارة شردت في خِضمٍّ بحر من الأفكار الأخرى، أرادت إخراجها من تلك الأفكار فقالت:

– إي ي.. ثم داعبت ركبتها الظاهرةُ عظامُها وأردفت تقول: ما الذي جرى في مصر؟

كان سؤال الجارة منبّهاً جيداً لإخراج سارة من النفق الذي دخلت فيه، التفتت إلى الخلف كمن يضيع في عالم من الذكريات، وقالت بصوت متكسّر:

– وصلنا إلى مصر لكي نصل إلى الرحمة التي بحثنا عنها سنين.

Twitter: @ketab_n

في البداية صرخ الأطفال: ماء. بعد ذلك صرخ العجائز الذين أرهقهم الطريق الطويل الذي استمر أشهراً وزاد من تقدّمهم بالسن بعبارات الشكر. لم أعلم فيما إذا كانوا يشكرون لأنهم وجدوا ماءً أم لأن الطريق وصل إلى نهايته.

النيل كعروس جميلة، يمتد بحكمة ووقار وبهدوء دون قلق أو اضطراب. يتدفّق كحبيب ينتظر أحبته محاولاً عدم إظهار ذلك. انتعشت روحنا، التي أرهقتها الصحراء، برطوبة النيل. لامست نسمات النيل العليلة شغاف قلوبنا، يا للماء كم هو رحمة للكائنات. الرحمة؛ كم هي شيء جميل.

لم ترغب سارة بالحديث عن بقية الحكاية. فلقد تعبت. كانت تخشى أن يُفضي النهار إلى الليل، وقلق حزن الليل يطغي على قلوب البشر. أُصيبت الجارة بقلق غريب فغادرت المكان بسرعة.

سُرَّت سارة بمغادرة الجارة، كانت تُحب البقاء وحيدة مع عواطفها، فبالرغم من أنها ترغب بتقاسم أفكارها مع الآخرين إلاّ أنها كانت تجد بنفسها أفضل الحلول. فكل اضطراب تمر به العاطفة تجد بداخلها أسباب هدوءها وتنتهي، لأنه لدى كل عاطفة ما تريد قوله للإنسان، وعندما لا يتم فهم العاطفة يغزو القلق قلب صاحبها. إن سماع صوت العاطفة من قِبل الإنسان وفهمه ما تريد قوله يتم فقط من خلال وحدة الروح مع ذاتها المنطوية على داخلها. وقتها فقط يفك لسان العواطف، يجب قبل كل شيء الإصغاء لما تقوله بشكل جيد. وعندما لا تُسمع تصيب الإنسان بالكآبة. ما هي هذه العواطف؟ كم هي حسّاسة وكم هي رقيقة سهلة الكسر وكم لديها من الأشياء التي تريد قولها لنا. كلّ عاطفة عبارة عن هاتف ممتد من ربنا إلينا، هي طريقنا للحديث معه ولا شك بأن الكلام القادم منه لا حدود له.

نظرتُ إلى عيني سارة الشاردتين المنكسرتين كانت تقرأ ذكريات

Twitter: @ketab_n

مصر داخلها، لم تكن تريد تذكّر أيام مصر من خلال ذكرياتها، فقد كانت تحب تذكّرها من عالم ذكرياتي فكم مرّة سمعت ذكريات تلك الأيام مني.

كان واضح أنها كانت تحلم بتلك الأيام. من استرخاءها في المكان الذي كانت تجلس فيه أدركت أنها غاصت عميقاً في تلك الذكريات. كنت أشعر بما تفكر به. بقيت عيناها معلّقتان بي.. ازداد الصمت بيننا.. كانت تهزّ رأسها بحزن وتقول:

- هيا يا هاجر، احكِ لي عن تلك الأيام.

وكنت في كل مرّة أبدأ بالحديث. أبدأ بالحديث بنظرات غامضة أرميها في خلجان الماضي الكامنة في وجهي الأسمر الذي يحمل جمال الصحراء الصافي ممزوجاً بحمرة الخجل. بداية كانت ترفّ عيناي السوداء ثم أرمي شعري الأسود، الذي يحاول الخروج من غطاء الرأس، إلى الخلف وأسوّي الغطاء بأصابعي الرفيعة وقتها تكون عيناي قد ذهبت بنظراتها إلى النيل.

كانت سارة تقول لي دائما:

- هاجر، أحب المقدمة التي تقومين فيها قبل البدء بالحديث، وأنا أنظر إليك أشعر بالشباب وبالحياة في جسدك الرشيق الناعم وفي عينيك السوداوتين المتدفقتين كنهر النيل واللتين تحيط بهما رموشك السوداء كالليل.

عجباً هل غارت سارة من إبراهيم على عينيّ اللتين رأت فيهما تغريد الشباب وتدفق نهر النيل؟ هل عاشت هذه المشاعر قبل أن أصبح أماً؟

استقامت سارة في جلستها، كان واضح أن أفكارها تجول في أماكن أخرى.

عادت سارة إلى عالمها الجوّاني وسألت نفسها:

Twitter: @ketab_n

- لمَ أشعر بالغيرة من هذه المرأة؟ فأجابتها نفسها بغضب:

- المرأة تغار، لا شك بأن المرأة تغار على زوجها، هكذا خلقنا الله. ثم أنت لم تغار من أجل أنوثتك بل غرتِ من أجل أمومتك.

تذكرت سارة إبراهيم. كم من مرّة سأل إبراهيمَ سارة فيما إذا كانت ستغار عليه أم لا، وفيما إذا كان القرار الذي اتّخذته سيُحزنها أم لا وفيما إذا كان سيجعلها تشعر بالندم أم لا.

وفي كل مرّة كانت سارة تنظر إلى عيني إبراهيم وتقول:

- لن أغار. ثم تقول سارة:

- أه كم من مرّة طلب إبراهيم مني أن أصغي لصوت قلبي وسألني فيما إذا كنت سأغار أم لا.

لقد قطعت لحبيبي إبراهيم عهداً بأن لا أغار. هكذا كنت أظن. قلت له سأحبها مثل ابنتي.

ليس بيدي.. ربما لا أغار انطلاقاً من أنوثتي بل من أمومتي. قالت نفسها:

- لا، بل غرتِ انطلاقاً من أنوثتك، فلا توجد امرأة تغار انطلاقاً من أموتها. خشيتْ من اكتشاف أمرها فسألت عواطفها كنوع من الدفاع عن النفس:

- لم لا تغار المرأة على أمومتها؟ كأن الصوت الذي جاءها لم يكن من عواطفها بل من مكان عميق جداً:

- الأمومة مجال الحنان بينما الأنوثة مجال النفس والمحبة. فهل تغار الأم من ابنها؟ لكنها تغار على زوجها.

تعرّت عواطفها، خشيتْ أن تُعرف أو أن تُسمع أو أن تُفهم. لم تحتمل سارة استجواب نفسها أكثر من ذلك، كان واضحاً أنها تحاول الهرب من ذاتها، كل شخص يحاول أن يبقى بمفرده مع عواطفه.

امرأتان تجلسان بصمت وتتقاسمان العشق والحب.

Twitter: @ketab_n

مال الليل علينا رغبة منه بأن يخفي افتراقنا . نسمة منعشة جرّت أذيالها على التلال ووصلت إلينا بهدوء. حزن غريب لامس روحي فنقلني إلى ذكريات مصر. تذكّرت سحر تعاويذ النيلوفر (عرائس النيل) التي تتمسّك بالنيل والشمس التي فقدت نشوتها وأوقات الليل المتلاصقة مع النيل.

Twitter: @ketab_n

صحراء أم بحر؟

عندما ترك إبراهيم كلدة بلاد نمرود وتوجّه إلى حرّان كان إلى جواره ابن أخيه لوط.

وعندما تلقى أمر مغادرة حرّان، انطلق لوط وكل الناس المؤمنين مع عمه، وقبل أن ينطلق إبراهيم سأل ابن أخيه لوط قائلاً:

– يا ابن أخي، أنت معي منذ عشرين عاماً، لا أحد أظهر قربه مني كما أظهرت أنت، والآن أنا هرمتُ. فإذا ما كلّفك الله بمهمة مقدّسة إعمل عليها دون كلل أو ملل ودون أدنى خوف.

أجاب لوط عمّه وهو يشعر بالأيام القادمة المليئة بالسعادة الكبيرة والجهد المضني:

– يا عمي، يجب أن أكون قوياً مثلك كي أعمل ما تقوله، وأنت ترى كم أنا صغير وكم أنا ضعيف.

رد إبراهيم على ابن أخيه من مقام نبوته العالي قائلاً:

– يا لوط، الذي يعطيك القوة هو الله. نقطة من القوة التي يعطيها الله ستتفوق بها على أقوى الحكام في الأرض. هيا قم لكي ننطلق.

جُبلت حياة الأنبياء بالدروب، كان كل واحد منهم كمسافر دائم في هذه الحياة. لم يقيموا في مكان، لم يصبحوا سكان دائمين في أي منطقة، من يعلم أي حكمة جعلت الطرق والمسير الدائم تطوّق حياتهم. انطلق إبراهيم والناس الذين معه: أطفالاً وشيباً وشباباً، ومعهم بلاغ الله ومرشد يدلّهم على الطريق. أُعلموا بالمكان الذي سيصلون إليه:

Twitter: @ketab_n

- البحر.

إبراهيم معتاد على الطرقات. وأما الذين يسافرون لأول مرّة فقد عرفوا ما يعنيه مصطلح الطريق. ما جعل كل واحد في هذه الدنيا يضع تعريفاً يناسبه للطريق. قالت امرأة:

- الطريق يعني الممتد الطويل والعذاب.. وقال طفل:

- الطريق تعبٌ وغربةٌ ووحدةٌ وانطواءٌ. وقال شاب:

- الطريق اكتئابٌ وطلاسمٌ وغموضٌ. بينما قال رجل عجوز وهو متردد لا يدري فيما إذا كان سينظر إلى الأمام أم إلى الخلف، بصوت مرتجف كجسده:

- الطريق يعني الفراق.

بينما كانت الأخيلة تحلم بالبحر راحت النظرات تبحث في البعيد البعيد عن أزرقٍ يلوح في الأفق. استبدل الليل مكانه مع النهار والحرارة مع البرودة، كما استمر صراع الضياء مع العتمة أياماً وأشهراً..

نفُذَ الصبر وأُنهكت القوى وتبددت الطاقة.

تحوّلت الآمال إلى أدعية.

البلية هي السؤال التطبيقي الذي لا يتغير في امتحان الدنيا في حين أن الإيمان تطبيق ينعكس عملاً في الحياة أكثر من كونه مصطلح مجرّد.

الطرق ممتدة وطويلة والوجوه متعبة، لكن نقاط الانعكاس كانت تُظهر ذروة الإيمان. صارت الصحارى صبراً والطرق الطويلة صارت طرقاً جديدة للّجوء إلى الدعاء بغية الوصول إلى حضرة الله. في نهاية المطاف لاح الأزرق المطلوب الوصول إليه، اتّحدت الألسنة في كلمة واحدة:

- البحر، البحر..

البحر إشارة تعني انتهاء الطريق.. بشارة النهاية.. أراحت هذه

Twitter: @ketab_n

البشارة قلوب الجميع. نودي على الذين رأوا الماء الذي يُطلق عليه بحر لوط وصرخوا بسعادة:

- هذا ليس بحر.

انعكست الأحلام المحطّمة على الوجوه خطوطاً ومساحات حزينة. فسألوا:

- ما هذا إذاً؟ فقال لوط:

- إنه بحيرة.

طلب المؤمنون المتعبون الذين يسمعون بكلمة بحيرة لأول مرّة من لوط أن يشرح لهم كلمة بحيرة، فقال لهم:

- انظروا كيف تظهر ضفتها الأخرى.

دُهش إبراهيم من قدرة لوط، الذي لا يرَ من قبل لا بحر ولا بحيرة، على التمييز بينهما، ولكنه أدرك أن هذه المعلومة الخفيّة تدفّقت إلى روحه وسأله:

- وكيف عرفت؟

نظر لوط باحترام إلى عمه وقال:

- هكذا، لقد خرجت من فمي، لا أعلم كيف نطقت بها.

من خلال كلام لوط هذا تلقى إبراهيم أول إشارة تدل على أن الكلام الإلهي قد نُفخ إلى قلب لوط فنطق به.

حتى وإن لم يتم الوصول إلى البحر فقد كانت البحيرة، بالنسبة للذين ساروا أياماً في الصحراء، محطة جميلة تخفف ضيق السفر وتزيل مشقة الطريق وتخفف حرارة الرمال الملتهبة وتبعث النشوة في النفوس.

فرح المسافرون، سَرَى الأزرق، بأشجاره وبعناقيد الصفصاف التي تحيط به، وبأسراب البط التي تسبح فيه وبزقزقات الطيور التي تغرّد في سمائه، في مئات الأجساد المتعبة. بينما كان الجمال المادي للأزرق يُسكر هؤلاء الناس رأوا أناساً يلوّثون هذا الجمال بأوساخٍ معنوية. تصرفات هؤلاء

Twitter: @ketab_n

البشر البعيدة عن الحس الإنساني أنست المؤمنين تعبهم المادي، وراحوا يفكرون بهذا الوسخ المعنوي.

أدّت قلوب المؤمنين النازفة دعاء الرحمة على هذا المكان، وطلبوا الرحمة من ربّهم، وكُلّف لوط بالنبوة هنا فافترق لوط مع تسعة من أصدقائه عن القافلة وبقي هنا ليعرّف بلد هؤلاء الناس، سيئي الحظ، بالله.

افترق إبراهيم عن ابن أخيه لوط الذي يحبه كثيراً.

ومن جديد لقّن الله إبراهيم الذي لا يحب الأمور الفانية.

وهو يفارق لوط تمتم إبراهيم قائلاً:

لا أحب الآفلين.

Twitter: @ketab_n

جمال سارة

ترك المؤمنون لوط وأصدقائه من أجل هداية المدن المحيطة بالبحيرة وتابعوا طريقهم باتجاه البحر. الصحراء من جديد والشمس الحارقة والأنهر الملتهبة والليالي الباردة، استمروا على هذه الحال أشهراً.

كان النيل يحتضن المسافرين المتعبين بحنان بينما نحن لم يكن لنا علم بالقادمين ولا بالغادين. كنا نمضي أيامنا داخل ذاك السجن القابع في حضن النيل والذي يطلقون عليه اسم القصر. كانت الحياة مليئة بالمشقة والخوف إضافة إلى الملل. كان هناك العديد من القواعد الواجب اتباعها، القتل أو الإلقاء في النيل أو على الأقل تلقي الضرب أو البقاء في السجن أياماً كانت عقوبات طبيعية على أصغر خطأ نرتكبه، كانت العقوبات، التي مجرد الحديث عنها تصيب الأبدان بالقشعريرة، تدفعنا لأن نكون حريصين على كل سلوك من سلوكنا.

كانت حياتنا تسير ضمن جوٍّ من الانضباط الصارم. كنا نشعر بالظلم الذي نتعرّض له بشكل يومي. بقدر ما كان الحاكم صادوق قاسياً بقدر ما كان معجباً بنفسه. وكان يعتقد بأن له الحق في امتلاك كل النساء الجميلات. كان يتم تحديد كافة النساء الجميلات اللاتي يدخلن إلى المدينة من قبل رجال صادوق ويُخبرونه بهن. كانت هذه الأشياء من الأمور الاعتيادية في القصر.

ذاك اليوم كان مختلفاً تماماً. فقد جرت حادثة لم تجرِ من قبل. اهتزّت قوة وهيبة فرعون بسبب امرأة، كان القصر يضجُّ بالأقاويل.

Twitter: @ketab_n

همسات مضطربة ووجوه تنظر إلى بعضها بخوف ودهشة، والأسئلة.. دقّت الآذان بحب معرفة يطلقون عليها اسم الفضول. حادثة، كلما ازداد الحديث عنها زاد غموضها وسحرها وسرها...

كانت الجواري والخادمات والحرس والعبيد كانوا جميعهم يحملون نفس الخبر:

- حاول الحاكم الاقتراب من إحدى الجميلات القادمات إلى القصر فجرى ما جرى..

عيونٌ فُتحت على صدمة الخبر.. وجوهٌ مصفرّة من الحيرة.. أدعيةٌ نابعة من القلب أيقظها الخوف..

البعض قال بأن المرأة ساحرة، والبعض الآخر قال بأنها ملاك، والغالبية العظمى على قناعة بأنها أمَة يحبها الله فأرسلها لمعاقبة فرعون.

جموع غفيرة ملتفّة حول كبير الخدم المُسن الذي تنعكس على وجهه تجارب السنين وهو يتحدث باضطراب:

- رجال الحاكم أخبروه بمجيء قافلة إلى المدينة وقالوا لسيدنا يوجد بين رُكب القافلة امرأة جميلة جداً.

قائد القافلة رجل يُدعى إبراهيم. بداية، قام سيدنا باستدعاء قائد القافلة إلى القصر وسأله عن درجة قرابته بتلك المرأة، فقال له:

- إنها أختي. فقال سيدنا فرعون للرجل:

- إذا كان الأمر كذلك فارسل أختك إليّ. وقد ظهر بأن المرأة هي زوجة ذاك الرجل وكان قد سمع، قبل أن يأتي إلى مدينتنا، بأن سيدنا كلما أتت امرأة جميلة إلى المدينة يأخذها ويقتل زوجها. وكانا قد اتفقا فيما بينهما بأن يقولا بأنها أخته في حال سألهما الحاكم. فقد قال زوج المرأة الجميلة لزوجته:

- إن ما سأقوله ليس كذباً، فنحن أخوة في الدين. كوني على ثقة بأنه، بإذن الله، لن يمسّك بسوء.

Twitter: @ketab_n

أُحضرت المرأة الجميلة إلى حضرة سيدنا صادوق، أُعجب سيدنا بها حال مثولها بين يديه.

في هذه الأثناء كان زوج المرأة يتوسّل لله، وأجمل امرأة في العالم أيضاً كانت تدعو له.

كان الجميع يصغون لحديث كبير الخدم، فسألته إحدى الجواري بانفعال:

- هل رأيتها؟ تلوّى كبير الخدم بغرور نابع من رؤيته لها وهزّ رأسه بغرورٍ بأن «نعم» وتابع كلامه:

- طويلة القامة، في وجهها بريق كأن الشمس تشرق منه، عيناها سوداوان واسعتان، مظهرها هادئ يبعث على الطمأنينة، رقيقة جداً، في وقفتها وقار يجعل المرء ينحني إجلالاً لها. امرأة فيها سحر.

قالت الجواري والخادمات، اللاتي استُثير فضولهن لمعرفة أصل المغامرة أكثر من فضولهن لمعرفة الجمال:

- إي؟ وماذا بعد؟ منتظرات معرفة حقيقة ما جرى.

- شعرت المرأة بأنها وقعت بمأزق صعب، فلأول مرّة تقع عين رجل غريب عليها. فتوجّهت إلى ربها وقالت:

- يا إلهي، لقد آمنت بك وبنبيّك إبراهيم، لقد حافظت على شرفي طيلة عمري، أتوسّل إليك يا ربي أن تُبعد هذا الظالم عني، واحمني من شروره.

سأل الخدم بعيون مفعمة بحب الفضول لمعرفة ما جرى قائلين:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- ثم أراد سيدنا الاقتراب من المرأة، مدّ يده ليلمس جسدها، ولكن يده تحجّرت وبقيت واقفة في الهواء. صارت صلبة وقاسية. فقال سيدنا للمرأة:

- أيتها المرأة، ادعِ ربّك كي يفكّ يدي، وبعدها سأخلي سبيلك.

Twitter: @ketab_n

دعت المرأة، وعادت يد سيدنا إلى سابق عهدها، ولكنه لم يحتمل أمام جمالها فعاد ومدّ يده، ومن جديد تحجّرت يده وبقيت في الهواء. ومن جديد طلب من المرأة أن تدعو ربها قائلاً بأنه سيتركها. وتكررت هذه الحالة ثلاث مرّات.

فهم سيدنا وقتئذ بأنه لن يكون بمقدوره الاقتراب من هذه المرأة. فصرخ بوجه رجاله قائلاً:

- أنتم لم تُحضروا لي امرأة بل أحضرتم شيطاناً. خذوها من هنا على الفور.

ولكنه في قرارة نفسه أدرك بأن هؤلاء الناس صالحين. نادى للرجل وسلّمه زوجته.

أما أنا فلقد حكمت على هذه المرأة الجميلة، التي لم أرها، بأنها امرأة صالحة، فقد كنت أرى أن كل امرأة لا يستطيع صادوق الوصول إليها هي امرأة صالحة، ولهذا السبب كنت أضع نفسي بين النساء الصالحات.

راح خيالي يضع أشكالاً لجمال تلك المرأة، أي امرأة هذه؟ وكيف هو زوجها؟ هل يحب زوجته كثيراً ولهذا حماها الله من صادوق؟ بحثت عن أجوبة للعديد من الأسئلة. بينما كنت أشاهد النيل من تراس القصر كنت أتفرّج على تلك المرأة التي لم أعرف اسمها.

انعكست أشعة الشمس المنكسرة على النيل وهي تميل إلى الغروب. هبّت نسمة عليلة حرّكت أزهار النيلوفر الموجودة على سطح النيل. كان النيل باب الانتظار بالنسبة لي. كنت أغوص في أعماق أعماقه، كنت أنتشي برطوبته وأنفعل ببركاته، كان النيل صديقي. كنت أشكي له همومي بنظرات عينيّ، وكنت، بالنظر المستمر إليه، أُزيل هموم حياتي المليئة بالمشقة والألم جرّاء وجودي في هذا القصر. وأما هو فقد كان يستمر بتدفّقه بحنان يبعث على الراحة ويرسل مواساته لأم لم تجد مخرجاً من أزمتها. وأحياناً كان يجرف أحلامي وهو يأخذ جسداً غضاً من القصر ويتابع سيره. الجانب

Twitter: @ketab_n

المخيف للنيل هو أنه كان يبتلع واحدة من النساء البريئات ويذهب. عندما كنت أفكّر بهذا الجانب أشعر بالقشعريرة منه.

كانت خادمة صغيرة تقفز على درجات سلّم القصر الحجري وهي تمسك بيديها فستانها الأخضر والأصفر وتهرول مسرعة لدرجة أن حذائها الأحمر يكاد يدقّ برقبتها.

صمتت الخادمات اللاتي كن يبحثن عن جمرة بين نيران حديث كبير الخدم الذي أنهى كلامه، وركّزن نظراتهن على النبأ الذي كانت تحمله البنت الصغيرة كطائرٍ صغير.

وصلت البنت وهي تركض، كانت تحاول التقاط أنفاسها. وبعد أن أخذت نفساً عميقاً هدأت وقالت:

- هل تعلمون بأن سيدنا سيقدّم جارية من القصر للمرأة التي حجّرت يده؟

شعرتُ بتباشير اضطراب وانفعال شديد.

كانت البنت الصغيرة مستمرة بنقل الأخبار التي سمعتها. بعد ذلك نظرت حولها بخوف، ولما شعرت بأنها بأمان تابعت حديثها:

- أراد سيدنا الحاكم تقديم هدايا ثمينة وجوارٍ كثير ولكن المرأة لم تقبل أيّاً منها. وبصعوبة قبلت أن تأخذ جارية.

ما أن أنهت البنت كلامها حتى سُمع صراخ كبير حرس القصر:

- أيتها الجواري الفتيات، اجتمعن في حديقة القصر.

كلمة الجاريات الفتيات تعني تلك اللاتي لم يرتمي عليهنّ ظلّ صادوق. ركضت أربعمائة جارية سمراء وبيضاء وشقراء وحنطيه إلى حديقة القصر. انتظرنا هناك بقلق غريب نابع من شعور بعضنا بالخوف وبعضنا الآخر بالاضطراب.

أربعمائة قلب يرتجف وهو ينتظر مصيراً مجهولاً. كان الخوف بادياً على وجوه بعضنا وعلى أيادي بعضنا الآخر وعلى أرجل البعض الثالث.

Twitter: @ketab_n

ظهرت سارة. فجأة خفق أربعمائة قلب. نظرت بعض الجواري بحزن والبعض الآخر نظر بقلقٍ من لا يعرف مصيره.

وقعت عيني في عينيها، تبادلنا النظرات، كأن روحينا التقتا. كأننا نعرف بعضنا منذ الأزل. نظرت سارة إلى المجتمعات واحدة واحدة، نظرت فقط. كنت أعلم بأن قلبها، كعينيها، نظر إليّ. ألقت نظرة سريعة على الجواري الأربعمائة ثم عادت ونظرت إليّ متّخذة قرارها، فأشارت:

- هذه.

تم اختياري.

الجاريات الأخريات نظرن إليّ بشفقة، فأنا التي ستترك السلطان وتذهب، ربما كن يفكّرن بأن واحدة منهن ستصبح زوجة صادوق وتنال السلطنة. قال كبير الحرس:

- جهّزي نفسك فوراً.

فجهّزت نفسي.

هذا يعني أن المرأة الجميلة وزوجها سيغادران المدينة.

نظرت إلى الشمس، كانت تُغرب. شعرت بأنها سلكت طريقاً لتولد في رأسي.

عندما كنا نخرج من المدينة وجدت نفسي أسير خلف سارة وإبراهيم.

نظرت إلى النيل، نبعُ الحنان الذي أحب... في الظاهر كنت أترك الرحمة وأذهب ولكني شعرت بأنني أتبع الرحمة الحقيقية، أمامي إبراهيم وإلى جواره زوجته.

كنت أسير.. خلف هذين الزوجين، لا أعلم الكثير عن هؤلاء الأشخاص الذين أسير خلفهم. كل ما أعرفه، المرأة جميلة، جميلة لدرجة أن عفتّها مسحت وجهها بمسحة من الجمال.

مشيت خلف هذه المرأة الجميلة بطمأنينة. كنت أضع خطواتي بكل ثقة ودون أدنى تردد خلف هذه المرأة العفيفة.

Twitter: @ketab_n

لامست طمأنينةٌ شغاف قلبي ودخلت إلى أعماقي، لأول مرّة أشعر بالسعادة، لأول مرّة أشعر بأني مطمئنة، لأول مرّة أشعر بأني مختلفة. لأول مرّة تتماوج روحي في عالم السعادة المفعم بالأسرار.

مسحتْ وجهيَ الذابل حيويةُ فرح غامض.

بينما كنا نخرج من مصر نظرتُ، بابتسامة فرح ارتسمت على وجهي، إلى قصر فرعون.

كنا نمشي.

أسرار مختلفة في خطوات كل شخص..

دعاء مختلف في قلب كل شخص..

جميعنا كنا نمشي وراء مصائرنا..

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

حين ينطوي العالم في ذاتي

باتت مصر خلفنا، خرجنا منها إلى غير رجعة. أخذنا طريقنا على أمل ألاّ نمرّ إليها ثانية، وصلنا إلى منطقة بئر سبع (Saba) بالقرب من فلسطين. قالت سارة:

- لنقيم هنا.

وافق إبراهيم على اقتراح سارة وأقمنا هناك. كان المكان موحشاً لا بشر فيه ولا ماء ولا طعام. نصبنا خيمنا وأقمنا هناك مع من معنا من الناس. في اليوم التالي وجد إبراهيم ماءً يرشح من أسفل إحدى الصخور. حفر قليلاً فسال الماء دفّاقاً، تدفقت الرحمة. وبعد ذلك حلّت بركة إبراهيم في كل شيء. الحقول أعطت السنابل والأشجار قدّمت ثمارها، وكل من سمع بوجود الماء وكل من رأى البركة جاء راكضاً إلى هنا. عجّت منطقة بئر سبع saba بالبشر، بدأ الطمع لدى الناس وخشينا ألاّ تكفي الماء للجميع، فوضعنا حراسة عليه، صار الجميع يريد أن يكون حارساً عليه لدرجة أن الدور ما عاد يأتي لإبراهيم. فقال:

- لنترك هذا المكان.

فغادرناه قاصدين مدينة قسط، وبركة إبراهيم تتبعنا. جفّت مياه بئر سبع، فلحق الناس بإبراهيم طالبين الصفح منه.

خلال فترة وجيزة اعتدنا على مدينة قسط. أساساً لم نكن ننوي

Twitter: @ketab_n

أخذ أي مكان وطناً لنا. الأنبياء يعيشون في هذه الدنيا ضيوف. ونحنا كنا نتبع نبياً عظيماً ونعيش في كنفه.

مع مرور كل يوم كان إيمان إبراهيم يلامس روحي وروح سارة. وكان الشكر واضحاً على وجهينا. كنت وسارة متفقتان، نأكل سوية ونشرب سوية وننهي أعمال البيت سوية، كانت أيامنا مليئة بالانسجام والمحبة، كنا نعيش بسكينة وبسعادة.

كانت تلك الأيام بالنسبة لي مريحة وخالية من المشاكل، أفعل كل ما تطلبه سارة مني. لم يكن لديّ أية مسؤوليات أو قلق أو أي انزعاج.

كنت أشعر، بين الحين والآخر، برغبة إبراهيم وسارة بأن يكون لديهما طفلٌ. وكنت أرى الحزن بادياً على سارة بسبب عدم وجود طفل لديها. فقد كانت سارة الكتومة تُعبّر عن ذلك بعدة جملٍ هاربة من فمها. في الحقيقة كنا أنا وهي كتومتان وكلانا لا نحب القيل والقال. كانت عيوننا تراقب الأفق البعيد كمن ينتظر تحقيق حلم ما. حلم لا نعلم كنهه، مجرد شعور وحدس. وبالرغم من أن إحدانا كانت سيدة منزل والأخرى خادمة فقد كان شيء أشبه بالتنافس يجول بيننا.

حلّت بركة إبراهيم في جميع مناطق مدينة قسط. كانت مائدة إبراهيم الخليل عامرة بالطعام، لم يكن يمر علينا يوم دون ضيوف، صار لإبراهيم اسماً جديداً «أبا الأضياف».

كان إبراهيم في الثمانين من عمره وسارة في الستين. ذات يومٍ طغى فيه شعور عدم وجود ولد على عالم إبراهيم المفعم بالحنان والرحمة، فتوجّه بالدعاء لربه لكي يطعمه عاطفة الأبوة:

- يا ربي، اجعلني أستمتع بطعم الأبوة ولو لمرّة واحدة فقط، وبعدها سأقدمها أضحية تعبيراً عن شكري لك.

أمن الممكن أن يفتح نبياً عظيماً يديه لربه ولا يستجيب الله، واسمه المجيب، لدعائه؟ بداية وصل الدعاء إلى عواطف ومشاعر سارة. تألّمت

Twitter: @ketab_n

على إبراهيم الذي حُرم أن يكون له ولداً بسببها ووقعت في نفسها فكرة تزويجه بي. بقيت سارة أياماً تناقش هذه الفكرة في رأسها وفي آخر المطاف وجدتها مناسبة.

- ومن تكون هاجر هذه؟ إنها مجرد جارية ولا يمكنها أن تحل مكاني، لا يمكن أن يكون لها قدّر وقيمة مثلي لدى إبراهيم.

فتحت موضوع الزواج مع إبراهيم ولكنه رفض الفكرة. فإبراهيم يعرف سارة ويعرف مدى غيرتها، شعر بأن زوجته المدللة لن تقبل الدخول في منافسة مع أحد. ولكن سارة أصرّت على فكرتها :

- كلاّ، عليك أن تقبل بالزواج بهاجر.

دائماً كان يحدث ما تريده سارة.

سارة هي التي نقلت إليّ خبر الزواج.

كان الخبر غريباً بالنسبة لي، كأن سرّاً وقع في داخلي. وضعت يديّ على قلبي ولم أعرف بماذا أرد. تسرّب السرّ إلى وجهي، نظرت بطرف عيني إلى سارة، تحاشينا التقاء عيوننا ببعضها البعض.

تزوجنا.

روحان

هذا الزواج مختلف عن بقية الزواجات، الجميع فرح لهذا الزواج، تغيّر لون العالم وتغيّر سير الحياة.

وصل العرش إلى النشوة واصطف الملائكة يباركون هذا الزواج.

وصل السرّ الموجود عند إبراهيم إلى مرحلة البوح عندي..

انطوى العالم فيَّ..

صرت امرأة ذات «ميم».

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

هل هذا حب أم عشق

كانت أرض فلسطين وطننا الجديد. كنا قريبون من لوط. الأخبار التي كانت تصلنا من قوم لوط كانت تحزننا. كانت المدن الخمسة التي كُلِّف بها لوط تنسلخ عن الإنسانية يوماً إثر يوم. لا يزالون يغلقون أبواب قلوبهم أمام الإيمان، كان إبراهيم يحزن على لوط ويدعو له.

كان إسماعيل ينمو ويترعرع يوماً بعد يوم. وإبراهيم يعيش حظه بأن أصبح أباً في وقت متأخر من عمره مع ضحكات إسماعيل. عندما كان النبي الرؤوف يقبّل إسماعيل كان يشعر بحنان مختلف. وأما إسماعيل فقد كان يحقق سعادة كبيرة لوالده في حين أنه كان يزيد الهموم على قلب زوجة أبيه.

كل ما كنت أفعله أو أقوم به كان عبارة عن ذنب أرتكبه بالنسبة لسارة والآن أظهرتني ابتسامات إسماعيل مذنبة من نوع آخر. باتت سارة لا تطيق رؤية إسماعيل كما لا تطيق رؤيتي.

منذ ولادة إسماعيل طُردنا ثلاث مرّات. اعتاد على الطرد من مكانه وعلى الإبعاد عن سريره منذ أن كان رضيعاً. وكم من مرّة كنت وابني مرميّين دون بيت أو مأوى منتظرين هدوء غضب سارة. كان الحصول على رضا سارة امتحان بالصبر لي ولإسماعيل. وكانت لحظة سعادتنا تتحقق عندما نتوسّل الرحمة منها لنعود إلى البيت. ضمن هذه الضوضاء كان إسماعيل ينمو ويكبر دون أن يعير انتباه لكل هذه

Twitter: @ketab_n

التقلبات.. كان نموه كل يوم وإظهاره ابتسامة مختلفة ووقفة مختلفة هو مصدر سعادتي الوحيد.

ذات غروب حين كان إبراهيم يجلس وإسماعيل في حضنه وصلت إليه سارة وصرخت بصوت مفعم بالغيرة قائلة:

- إن رؤية هذا الطفل يذكرني بعقمي. ليذهب هذا الطفل وأمه من هنا.

كان غضب سارة هذه المرّة مختلف عن غضبها في الأيام السابقة، لأول مرّة ينتابني شعور بالخوف من الطرد ويلفّني حزن الفراق. كيف يمكن لصاحب الرحمة الكبيرة، الذي ينزل إلى الطرقات ينتظر الضيوف ويفتح مائدته كما قلبه للجائعين والفقراء والمساكين، أن يرمي بزوجته وابنه بين أيدي الغرباء؟

كيف يمكن أن يحكم عليهما بالجوع والعطش؟ كيف سيلقي بهم في أماكن مجهولة لا أحد يعرف عنها أي شيء؟ لأول مرّة يعارض إبراهيم هذا القرار الظالم:

- لن يذهبا إلى أي مكان.

ازداد غضب سارة كما زبد البحر الهائج، صرخت بصوت محمّل بالبكاء:

- لا أريد رؤيتهما.

كان إبراهيم يعرض سارة بكل تصميم من جهة ويواسيها ببضع كلمات من جهة أخرى:

- أنت أيضاً بشّرك ربي بولد. فقالت له:

- متى؟

لم يكن إبراهيم يعرف متى سيكون ذلك. صمَتِ صمْتَ المطيع لقدره. قالت سارة بغضب معربة عن مخاوفها:

- انظر، لقد هرمتُ.

Twitter: @ketab_n

ذكّرها إبراهيم بقدرة ربه، ووضع اسم «المعجزة» على هذه القدرة التي يمكن للإنسان رؤيتها، ثم قال:

- هذه معجزة ربي، علينا أن ننتظر.

ارتاحت سارة قليلاً بعدما سمعت مواساة إبراهيم لها. ولكنها، مع ذلك، لم تهدأ.

- ليكن، يجب أن يذهبا.

حتى ولو كان لسارة ولد فهي لن ترضى عن بقائنا معها، فهي كانت تخشى وصول الأمور إلى مستوىً أكثر خطورة كأن يحدث عراك بين الطفلين، ولهذا السبب كانت مصرّة على ذهابنا مهما كانت النتائج:

- هل تريد أن يأتيني طفل ويحدث بين الأخوين ما حدث بين قابيل وهابيل؟ ماذا إن وقعت الغيرة بين الأخوين؟

علماً بأني حياتي كانت بعيدة عن كل غيرة، فمن ماذا ولماذا سأغار؟ الغيرة تعني عدم رضا المرء على قدره، وهي اعتراض على القدر الذي كُتب للإنسان، وأما أنا فراضية على كل ما قدّمه ربي لي. ثم أليست غيرة الإنسان من إنسان على ما أعطاه الله له هي قلّة أدب يمارسها الله ضد إلهه؟

لم أشعر بالغيرة عندما كانت سارة سيدتي، ولم أغر منها عندما تركنا مصر وتبعتهما، لم تُجرح مشاعري وأنا أسير خلفها، لم أشعر بالنقص لكوني الزوجة الثانية أو من الوقوف في الخلف.

إبراهيم يعرف جيداً من هي التي تغار ومن التي تعترض على قدرها.

لآخر مرّة يُذكّر إبراهيم سارة بعبارات قالتها له في الماضي:

- سارة، ألم تقطعي لي عهداً عندما طلبتِ مني الزواج بهاجر؟ ألم تقولي بأنك لن تغاري وإن رُزقت بولد فستحبينه كما لو كان ابنك؟

سارة تتذكّر جيداً ما قالته. صمتت برهة وهزت رأسها إلى الأمام

Twitter: @ketab_n

ثم نظرت إلى وجه إبراهيم المفعم بالصبر والتوكّل والذي مسحت شعره ولحيته مسحة نورانية وعبّرت عن كل ما يجيش داخلها :

- نعم قلت كل ذلك لكنني لم أعد أحتمل.

صمت إبراهيم.

استمر الصمت برهة، ثم كرّرت سارة بغضب ما قالته كمن يريد إظهار مدى تصميمه:

- خذهما، خذهما إلى أماكن بعيدة لا يسمع أخبارهما لا حي ولا ميت. نظر إبراهيم إلى أعماق وجه سارة المليء بالغضب.

أبعدت سارة رحمتها عنّا، إنها تريد منّا الذهاب إلى غير رجعة، تعتقد بأنها ستبعد قلب إبراهيم عنّا إذا ما أرسلتنا إلى أماكن بعيدة. علماً بأنه لا أهمية للمسافات بالمسائل المتعلقة بالقلب.

قد يكون للمكان علاقة بالحب ولكن ليس له علاقة بالعشق مطلقاً، فالعشق هو اللا مكان، المحبة هي يد النفس المرتبطة بالجسد . المكان هام للذين محبّتهم في أجسادهم وليس للمحبة أي بعد دون تقاسم المكان. أما العشق فهو وصول المحبة إلى القلب.

المحبة التي وصلت إلى مرحلة العشق ليست بحاجة للزمان وللمكان.

المحبة من النفس والعشق من القلب. ولأن النفس تحتاج للمكان فهي تبحث عن محبتها في هذا العالم، تبحث عن التقاسم. القلب لا يفكّر بالتقاسم لأنه تجاوز المكان والزمان.

ثمة فراق دائم للذين وصلت محبتهم إلى قلبهم وتوصلوا إلى كيمياء العشق. شعرتا بالراحة.

هناك طاعة في المحبة الذي وصلت إلى مقام العشق واعتراض عند محبة النفس. كان نصيبي العشق وأما نصيب سارة فكانت المحبة. كان الحزن واضحاً على إبراهيم الرؤوف، لقد أحزنت سارة أبي

Twitter: @ketab_n

إسماعيل بما فيه الكفاية. لم أرد إحزان إبراهيم بنزواتي. لم ألفظ أية كلمة، ولم أظهر أية ردة فعل على سارة، فالرغبات ليس بيد سارة بل بيد القدر. من يعلم ما هو المكتوب على الجبين وما الذي ستظهره الأيام، ما يقع على عاتقي هو الصبر والرضا عن ما هو مكتوب على جبيني.

النعاس يسحب الضيق لفترة إلى ذراعيه. وضع إبراهيم رأسه في سكرة النعاس.

طارت روحه إلى مطارح لوح الغيب التي يدعونها الرؤيا. أخبره ربي بأن إخراجي وإسماعيل من البيت قرار جيد.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الحظ الأسود زتر فلسطين

لم أُجرِ أية تحضيرات، أخذت ولدي وقليلاً من الزاد فقط، خرجت من فلسطين كمن يترك الدنيا إلى الأبد.

كنت مطرودة..

ألقيت آخر نظرة من عينيّ السوداوين إلى فلسطين.

رأيت العتمة تطغى على كل الأماكن.

أدركت أن حظي قد سقط على مصير فلسطين.

لأول مرّة أُطلق أنين آهٍ عميقة في سماء فلسطين.. همست بيني وبين نفسي:

- فلسطين وطن الفراق.. فلسطين التي تُبكي كلُ من يتخذها وطناً وتجعل حظه أسود. فلسطين التي لا تمل الأبرياء على صدرها وتُلقي بهم إلى الأيادي البرية المتوحشة، وطن الهجر والفراق، وطن الصبر، وطن المحن، وطن القهر ووطن الألم فلسطين..

كم من الأفكار أيضاً جالت في دماغي. أطبقت أيدي الألم والقهر على قلبي بقوة، لامست قلبي رياح الغربة الجارحة المحطّمة.. سقط المنفى من قلب بريء على فلسطين...

اصطفّت سهام القهر داخلي، لم أستطع إطلاق أيّ منها، تعلمت الاعتراض على القدر ورفضه.

منذ الآن سيصبح اسم فلسطين اسماً للوطن الذي لا يريد الأمهات ولا يريد الأولاد..

Twitter: @ketab_n

تحوّلت حسرة الطفل إسماعيل على أبيه إلى حسرة على فلسطين...

تركت فلسطين قاطعةً غزّة من أولها إلى آخرها ...

ستكون فلسطين بلداً يُحزن المظلومين ويُفرح الظالمين..

ستحيط فلسطين قدري..

كنت أبكي..

ستبكي فلسطين دائماً بقدر ما بكت هاجر.

منذ الآن وصاعداً ستتحول فلسطين إلى دمعة.

منذ الآن ستُبكي فلسطين الأمهات أمثالي والأطفال أمثال إسماعيل.

سيُسمع صوت إسماعيل في حنايا كل طفل يبكي وستُسمع حشرجاتي في صوت كل أم تبكي في فلسطين...

كان كل شيء يجري كما كتبه السر الأزلي..

Twitter: @ketab_n

حكاية العشق

«كأن هذا العالم بحرٌ من النيران.
العشق اسم يُطلق على إلقاء النفس فيه»

أيام مرّت وأنا أفكر بمشاعر سارة تجاه إبراهيم. لماذا كانت تعتبرنا غرباء؟ هل كانت مشاعرها تجاه إبراهيم حباً؟ أم هي عشقاً؟ هل غيرتها نابعة من رجفات العشق أم من صراعات النفس؟

ما هو العشق؟ هل هو حركة أم هو سكون أم هو تلاطم أمواج النفس على سواحل القلب؟

لم تعاني اللغة عجزاً بقدر عجزها عن تعريف العشق. هل يوجد في هذا العالم عاطفة أخرى دُرست في درّاسات الكلام آلاف السنين وطُحنت في طواحين الأفكار وهل يوجد عاطفة أخرى غيرها بهذا القدر من الغموض، عاطفة حُرقت واشتعلت بالنار على أبعد تخوم أسرار الروح؟.

اشتعل الوجود آلاف السنين وظهر إلى الوجود احتراقاً واشتعالاً، لكن الذي كان يشتعل هو العشق. بينما كان العشق يحترق بألسنة النيران ظهر هذا الطلسم الذي يُدعى الوجود.

في البداية كان العشق يحترق، أثناء احتراقه وصل إلى أبعاد الوجود. عندما ينتهي اشتعال العشق على المستوى الخارجي يبدأ اشتعاله على المستوى الداخلي، في هذه المرحلة يُلقي بالنيران التي يحتضنها إلى القلب.

Twitter: @ketab_n

يشتعل القلب بالنار التي تُدعى العشق، يهضم داخله اشتعال آلاف السنين ليستمر بعدها بالاشتعال راضياً راضخاً.

كان العشق خميرة خلق الكائنات وانعكست هذه الخميرة على القلب كاتحاد داخل الإنسان. ولهذا السبب عندما تُلفظ كلمة العشق يبحث القلب عن الآخر. القلب دائماً يجعل العشق يعيش بوجود شخص آخر.

حدّد القلب كيميائه في سرّ العشق: «العشق قانون الاتحاد»

لا توجد الغيرة والتقاسم في العشق، لكن التقاسم موجود في الحب. كان العشق يعني الوصول إلى الاتحاد، لا يوجد حسرة في العشق ليعيش هموم التقاسم والانقسام. الذين لا يوصلون محبّتهم إلى مرحلة العشق يعيشون هموم التقاسم، يمكن تقاسم المحبة لكن العشق هو لغة الاتحاد.

أبعاد اتحاد القلب كانت موجودة في العشق، والاتحاد وُجد مع العشق.

بينما كان قلب الذكر يمثّل الكائنات كان قلب الأنثى يمثّل العالم الداخلي وأُطلق عليه اسم العشق.

هنا بدأ التقاسم. بينما كان الذكر يمثّل الاتحاد على مستوى الكائنات اكتفت الأنثى بتمثيل الاتحاد في القلب من خلال العشق. كان الذكر هو العالم الخارجي بينما المرأة هي العالم الداخلي. كان الذكر في دائرة الموضوعية والمرأة في دائرة الذاتية. ولهذا السبب صارت المرأة، ممثلة العالم الداخلي تخطر على العقول كلّما لُفظت كلمة العشق.

كانت عاطفة سارة حباً أكثر منها عشقاً، كانت تريد إبراهيم، علماً بأنه عندما يقع العشق في القلب يتم استبعاد الجسد.

أُدرك تماماً بأن ما كنت أفكر به ليس سوى بحث الفكر عن الأسرار في عالم الغموض.

فكّرت بنفسي. أين أنا من هذا العشق أو من هذه المحبة؟ العشق داخلي، ونيران الغيرة التي اشتعلت في قلب سارة أشعلت قلبي بنيرانها، كان قلبي المستبعد ينزف بأنين الصبر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

المسير وحيدة

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الخطوة الأولى

لم تكشف الشمس عن نفسها بعد، سكرة الليل لا تزال تسري في المكان، ثمة جمال لم تلمسه يد النهار بعد. كنا سننطلق قبل بزوغ الفجر، كان يجب على النهار ألاّ يلامس الفراق. كأن النهار في تلك اللحظة يرفض الظهور، كأن الشمس ترفض أن تمد رأسها من بين الجبال، كأنها لا تريد بعد الآن أن تسطع بأشعتها على أحد.

قبل الانطلاق انهار تعب السفر المضني، كنّا أمام غرفة سارة التي كانت ترتدي ثوباً أبيض وقد بُرئت من ثورة غضبها بعد العاصفة وتفتّح لونها كما البحر، تعلو وجهها علامات النصر وفرح التخلّص منّا.

نظرت إلى ثوبي، كان أسود، دون أن ندري عبّرنا عن التناقض من خلال ثيابنا. كان الأسود يمثّل لون قلبي، فسويداء القلب أيضاً سوداء ولكنها نقطة انعكاس العالم النوراني وهي ساحة رؤيا القلب، وأيضاً بياض العين لا يرى بل البؤبؤ الأسود هو الذي يرى ويُظهر كل شيء.

السواد نضجٌ، طاعةٌ. الأسود لون السكون، وهو أيضاً لون الكمال، والأسود عموماً هو الألوان بذاتها وكل الألوان تعطي من الأسود لوناً.

كنّا امرأتان على مفترق طريق. واحدة ذاهبة والأخرى مقيمة.

هاأنذا ذاهبة.

ذاهبة إلى لون المطارح دون أن أدري. على حضني طفل رضيع، عملت من الحنان قماطاً له. ضغط على نفسي شعور بالعجز الإحباط. ستكون الوحدة رفيقة دربي.

Twitter: @ketab_n

تركت العالم خلفي.

أول خطوة وضعها إبراهيم وأما أنا فقد كنت تابعته. وحّدت سارة خطواتنا حين أرادت افتراقنا.

ساعدنا عبد إبراهيم أليعازر الشامي في تحضيراتنا للسفر. رافقنا حتى خرجنا من المدينة. قال إبراهيم لـ أليعازر:

- كل شيء على ما يرام.

أليعازر كان حزيناً. أعطى القربة المليئة بالماء وكيس الجلد المليء بالتمر إلى إبراهيم، أما إسماعيل فقد حملته أنا.

مشينا..

قطعنا السهول وعبرنا الجبال، أمضينا أياماً بلياليها ونحن نمشي، لفحت أجسادنا حرارة الشمس وتلقينا بصدورنا صمت النجوم الذي يُقطّر حزناً، مررنا ببلدان غريبة ووصلنا إلى الصحراء.

دائماً كانت الصحراء مصدر خوف لي، إنها المكان الذي لم أعرف يوماً فيما إذا كان البداية أم النهاية. وحدة عميقة.. المكان الأكثر انعكاساً، كما المرآة.. مجال انسحاب المادّة وطغيان المعنى، مكان يرضخ له كل شيء.

الصحراء قدرٌ مكتوب لي، نظرت وكأني أنظر إلى قدري.. إلى حبات الرمل التي لا تعرف شيئاً عن الحياة، شبّهت نفسي بحبات الرمل، وسارة بالشمس...

أقمت علاقة بين حبات الرمل التي أحرقتها الشمس وقلبي. كم تشبه حبّات الرمل قلبي الذي أعمته سارة وحرقته نار الفراق..

الصحراء، حياة في نقطة الصفر. كان عليّ الوصول إلى نقطة الصفر في ذاتي. كنت أعيش المرحلة الأولى، أعطيت سارة كل شيء، كل شيء بقي معها، ما تبقى لي قطعة من الرحمة أشعر بحنانها في حضني.

ضغطت الطفل على صدري.

مشيت، دون أن أترك آثار لقدميّ..

Twitter: @ketab_n

كان ثوبي طويلاً، كلما مشيت كان يلامس أسفل قدميّ فيمنعها من ترك آثارها على حبات الرمل. كنت أنا أول من لبس ثياباً طويلة، وأنا أيضاً كنت أول امرأة محبطة، عاجزة، بريئة، مظلومة، وحيدة..

مشيت..

كل الخطوات التي مشيتها لم تكن سوى الخطوة الأولى.. لفّني حزن الفراق والتهميش والطرد القسري..

كأن الصحراء تسرّبت إلى قدميّ، فجأة لامست الماضي بذاكرتي. هل أُصبت بسهام حسد قاتل.. هل تمنّى لي أحدهم: «لتتسرب الصحراء إلى قدميك ولتصبح طريقك الدائم، ليصبح الفراق حسرة دائمة وليتعلّق على بوابة قلبك». لم أذكر حتى يومي هذا لم أجرح أحداً ولم أُحزن أحداً، بالرغم من كل الجراح وكل الحزن الذي أصابني كنت مصرّة ألاّ أُحزن أو أجرح أحداً.

حاولت إبعاد الحزن الذي غاص داخلي..

لحظة انطلاقنا بدأت تريحني نسماتٌ هبّت بهدوء بهدوء.. كأن هذه الرياح التي تُدعى السكينة ستستمر بهبوبها طالما نحن نسير..

مشيت..

بالنفس،

بالروح،

بالقلب،

بألف سر وسر من أسرار القلب

بأجنحة ملائكة وضعني عليها سرٌ يُدعى الرياح.

سارة كانت امرأة وأنا أم..

تركت الأنوثة لسارة واحتضنت أمومتي ومشيت..

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

متى سينتهي هذا المسير؟

النبي العظيم يمشي، بيننا مترجم رضوخ الصمت للقدر. عند إبراهيم الصبر والتوكّل وأما عندي فدموع لا تعرف الهدوء. أبكي بحجم ابتعادي عن الأماكن التي أحبها، بحجم مسافات الفراق أبكي بقدر ما بكت كل الأمهات حتى الآن. اخفي دموعي عن إبراهيم وأتابع بكائي دمعاً ودماً.

فراق يلامس روحي، غربة تطفى على قلبي.

دموعي مليئة بالقهر، دموعي مفعمة بالغربة.

الابتعاد...

قدري مليء بالخطوط، لطالما ذهبت وراء أحد ما إلى أماكن أجهلها. لا أعلم خلف من جئت إلى قصر فرعون. كل ما أعرفه أنني تبعت سارة مبتعدة عن قصر فرعون.

أبتعد من جديد، أهرول نحو أماكن لا أعرفها. في وقت قطع فيه التعب أنفاسي وذهب الابتعاد بآمالي، سألت إبراهيم:

- متى سينتهي هذا المسير؟.

بجواب غير مكترث أفهم أننا سنتابع المسير.. الطريق طويل، ودموعي بطول الطريق.

الصحراء، الشمس، الحرارة.

امرأة، طفل، وأب.

ثلاثي في امتحان قسري.

الصمت دليل الطريق.

التعب بعثر الصبر.

Twitter: @ketab_n

إبراهيم يمشي أمامي، وأحياناً تسبقني نفسي وتسير أمامي، والتعب أحياناً يعطي فرصة للنفس بالكلام.. تقول نفسي:

- اسألي. لا تصمتي كل هذا القدر. إلى أين تجرّون أنفسكم؟. أيمكن أن يكون الطرد إلى هذه الأماكن البعيدة؟ ما هو ذنبك؟

أبكي لدرجة الصراخ والدموع تملأ عينيّ. قلت بنحيب مكسور:

- بحق الله قل لي متى سينتهي هذا المسير؟

إسماعيل في حضني يسبح بعرقه، ينام حيناً ويستيقظ حيناً آخر. عندما يستيقظ أقدّم له ثديي لأخفف عنه الجوع والعطش. حينما تنضب طاقتي، كنت الجأ إلى السؤال الذي يكسر جدار الصمت للحظة، متى سينتهي هذا المسير. على جبيني حبات عرق مجبولة بالقهر. ومن جديد يُفسد صوتي صمت الصحراء مبللاً بالدموع التي أنزلها تعب الحياة من عينيّ:

- إبراهيم، متى سينتهي هذا المسير؟

والجواب الصامت من جديد.

غاص المنفى داخلي، أشعر بأنني كما الأضحية، كأنني أضحية تتبع صاحبها. كل لحظة من حياتي صارت أضحية.

معجبة أنا بصبر إبراهيم وبقدرته على التحمل. كيف يمشي إبراهيم المفعم بالحنان دون أي اعتراض، إنه يحمل بيديه ابنه الوحيد إلى أماكن لا يعرف عنها شيء. أنظر إلى قدرة هذا الرجل الذي أمامي على التحمل. أفهم جيداً اعتماده على ربه ورضوخه لأوامره وتحمّله دون اعتراض، وأفهم أن اعتراضه بقدر تمرده وتوكله بقدر إيمانه. حبات الرمل الملتهبة تحرق قدميّ، الظمأ يشقق لساني، والتعب، من جديد، يملأ ذراعيّ. أنظر إلى طفلي، ينام رغم كل شيء. النوم أرجوحة في عينيه...

يوم جديد شارف على الانتهاء. مالت الشمس نحو الأفق، يتحد حزن الليل مع تعب السفر. تكررت الكلمات التي لا تريد الخروج من لساني:

- متى سينتهي هذا المسير؟

Twitter: @ketab_n

سر الكلام

طغى الفراق على الكلام. وإذ بسارة تمنعنا من الوصول إلى عالم أسرار الكلام. للكلام سحر. الكلام حامل القلب. في السفر الطويل إلى هذا الحد، في المسافات التي لا تكون سارة موجودةً فيها، يكون إسكاتها للكلام هو الطريقة الوحيدة لإسكات المحبين. ولهذا قبل أن ننطلق قالت لإبراهيم:

- لن تتكلم مع هاجر طوال الطريق.

أنا على ثقة من أن سارة نظرت إلى عيني حبيب روحها إبراهيم العسليتين وكررت عليه تحذيرها:

- لن تتكلم مع هاجر طوال الطريق، أليس كذلك؟

إبراهيم المفعم بالرحمة والحنان هزّ برأسه أن: نعم. لم يشأ تحطيم قلب سارة.

كان الكلام ممنوعاً بيننا.

ألم تسمع المادة الكلام في البدء؟ ألم يخلق الكلامُ الوجودَ؟ ألم يسمع الإنسان الكلام في عالم المثال ثم دخل في الجسد؟ أليس الكلام موجوداً خارج حدود الجسد؟ ألا يخرج كل الكلام من القلب، وفوق ذلك ألا ينسكب الكلام في القلب قبل أي شيء آخر؟

كان الكل أم بيننا وبين إبراهيم منقطعاً والكلمة محطمة. كانت الكلمات المحطّمة تجول في دماغي مرتجفة خائفة.

حين لا تكون الكلمة يكون المكان قاسياً وبارداً. الكلام، هو من يجعل المكان مفعم بالدفء والحياة. أصابتني قشعريرة جرّاء انعدام الكلام.

Twitter: @ketab_n

انعدام الكلام جعلني أشعر بالبرد.

سحبت سارة الحياة من لقائي مع إبراهيم. أردت الكلام، علقت الكلمات الخائفة من سارة في حلقي.

كان الكلام مليء بالأسرار، كان في الكلام قوة قديمة، كان الكلام يأتي منسلخاً عن القلب. كان الكلام وسيلة تهمس لنا بما كان يأتي منه، كنا نُخرج الكلام من باب «أنا» نا ونظنّه خارجاً منّا. وقتها كان الكلام يفقد قوته وبراءته.

حين سكت الكلام وقفت على باب المتكلّم. توجّهت إلى صاحب الخطاب الأزلي لسر الكلام:

- يا صاحب الكلام، إن لم تأذن أنت لن يخرج الكلام من الفم، لن يمر من القلب. إن أذنت أنت يصبح لسان الحال كلام، يصبح القلب كلام، وكل شيء كل شيء ينقلب إلى كلام.

كم هو اللسان عاجز عن الكلام كم هو ضعيف، وما هي حاجة الواصلين إلى سر القلب لوسيلة نقل الكلام. حين تصمت الكلمة يتكلم القلب. يطغى الزمان والمكان على الروح، يصبح موجوداً. كنت أعلم أن إبراهيم هو هاجر وأنا إبراهيم. عندما تُزال الأنا يتم تجاوز الفراق والهجر، ويتم الوصول إلى سر الاتحاد.

عندما سكت كلام اللسان قرأنا العشق في كلام القلب حرفاً حرفاً. بحجم الصحارى كتبنا كلاماً من الحب على لغة المشاعر. في كلام السر أخذنا طريقنا إلى العبودية..

المحبة هي التي تأتي إلى اللسان عبر الكلام، عندما ينسكب الكلام من النفس إلى القلب ويصل إلى مرحلة العشق ينشل لسان اللغة، يُصبح الكلام جامداً.

أدركت أن العشق ليس في العين بل في الروح، ليس في الكلام بل في السكوت.

أخذنا نفَساً عميقاً في كلام الصمت وانطلقنا، السكوت في عالم الكلام اللا متناهي..

Twitter: @ketab_n

ما يطلق عليه اسم جبل قاسيون

كنا نسير دون توقف، أحياناً كان طريقنا يحيد عن الصحراء ونمر بمدنٍ وقرى، عرّفتنا هجرتنا بدمشق. أقدام رسول عظيم، هجرة طفل صغير محمول بالحضن، وقلب أم ملوّعاً بالغربة.. يلامسون دمشق.

تركنا دمشق خلفنا، بات خلفنا جبل قاسيون، الذي شهد مصيراً يشبه مصيرنا. هذا الجبل يحتضن قبر نار الحسرة، لا تزال نيران قلب أبينا الأول مشتعلة حتى الآن، ولا تزال على ترابه رطوبة جرّاء انسكاب دموع أمنا على فلذة كبدها، لا يزال قلب أمنا حواء على جبل قاسيون يبكي على أحد ولديها ويحترق من أجل ولدها الآخر.

اشتعلت نار أول غيرة اشتعلت بين قابيل وهابيل من أجل المرأة. ألهذا السبب صارت الغيرة قدراً للنساء؟ شبّهت سارة ونفسي بولدي آدم. اشتعلت نار غيرة سارة من أجل أولادنا. اتخّذت سارة تدابير لمنع أية غيرة بين إسماعيل وولدها الذي قد يأتي بعده. قالت:

- خذ الأم وابنها من هنا. صراخها لا يزال في أذني:

- خذهما من هنا.

الرمال حارقة، وقلبي أشد حرارة منها. الشمس ملجأ النار، الغربة جمرة داخلي أشد حرارة من الشمس.

جسد إسماعيل الصغير بين ذراعيّ، روحه في مهد النوم..

أحياناً كان يفتح عينيه وينظر إلى عينيّ المحمرّتين، كأن الشمس استقرّت داخل عينيّ.

Twitter: @ketab_n

هأنذا ذاهبة يا سارة. لا نية لديّ حتى للنظر خلفي. أشعر أن النظر إلى الخلف يعني احتراق القلب وعدم الصبر ورفض التوكّل وعدم الرضا عن ما كُتب لي، والأهم من كل ذلك ألاّ أجرح مشاعرك. لا أريد أن أكون ممن يجرح المشاعر، أُفضّل أن أكون مجروحة. لا نريد لأوتار قلبك أن تتحطم يا سارة فلتحطمي أنت أوتار قلبي. أعلم أنه كلما تحطّم وتر منها يعني أن رابطة بالدنيا تنقطع لتحل محلها رابطة تصلني بالله. أشعر كيف تؤلّف أوتارُ قلبي المحطمةُ نغماتَ وألحانَ اتصالي بالله، أريد، بإصرار، ملامسة تلك الأوتار المحطّمة. سارة، أنتِ سبب وإبراهيم هو السبب الآخر.

من هو الذي خلفي، أنتِ أم جبل قاسيون الذي رقد فيه هابيل وهو في ريعان شبابه؟. يا سارة أنا سيطرت على نفسي بخصوصك، الشيء الوحيد الذي لم أستطع السيطرة عليه هو دموعي. كانت، طوال الطريق، تنهمر على الصحارى الحارقة كمطر الرحمة، يا إلهي أبعينٍ واحدة يوجد كل هذا الدمع؟

دمشق صارت خلفنا وجبل قاسيون لا يزال يتبعني.. كان يحمل منديلاً لدموعي ومواساة لألمي.. كان يقول لي: أنت لست أول من احترق بنار الغيرة، فقبر هابيل في أحشائي، أول شخص يُقتل بيد أخيه يرقد في أحشائي. أسمع في قلبي أصوات غيرة قابيل وأصوات توكل هابيل وتسليمه.. أشعر ببراءتي في قبر هابيل.

عندما كان قابيل يهدد أخيه بالموت قال له هابيل الذي لم يكن يعرف معنى الموت بعد:

- لن أرفع يدي بوجهك حتى وإن رفعت يدك بوجهي كي تقتلني.

أوضح هابيل عدم رغبته بوجه أخيه على الشكل التالي:

- إنني أخاف الله رب العالمين.

وأنا أيضاً أخاف الله يا سارة، أخافه أكثر مما كان يخافه هابيل.. الخوف جزء من المحبة، يخاف المرء من الذي يحبه بقدر حبه له. يتجه المرء إلى أحضان من يخاف منه..

جبل قاسيون يتحدّث وأنا أصغي له. طفلي على حضني وزوجي

Twitter: @ketab_n

أمامي، أنا تابعته. رميت حذائي الثمين في الصحراء. نظرت إلى نفسي التي تسمو خطوة خطوة بطاعة إبراهيم، كم كنت قريبة من ربي.

لا يزال الصمت هو المتحدّث بيننا.

الحال لغة وكلام.

صبري أساطير من الكلمات، آلاف من الرسائل الممتدة عبر العصور. تاج أنوثة ممتد عبر العصور في طاعة امرأة.

إبراهيم صامت، في حالة طاعة لربه. أنا صامتة، في حالة طاعة لربي ولزوجي. إبراهيم بين زوجتين. زوجتان وإبراهيم في امتحان العبودية. في الظاهر، أنا الطرف المغلوب على أمره والمظلوم الذي يقاسي الألم. تعرف سارة أن المنتصرين في امتحان العبودية هم، على العموم، المغلوب على أمرهم في الحياة الدنيا.

من يعلم كم مرّة في هذا المسير فكّر إبراهيم بعبارة سارة «خذهم من هنا». لكل كلام متكلّم نطق به، ما هو هدف ومراد الخالق في تنفيذ عبارة «خذهم من هنا»؟. حطّم هذا النبي العظيم، الذي لا يعطي أهمية للمادة، منذ زمن، بُعدَ سارة في غلاف الكلمات ورضخ لبعُدَ الحكمة الموجودة في المعنى. السكوت يعني التفكير في المعنى. الذي يخلق القدر ليست كلمة «خذهم» بل رغبة الله صاحب الكلام.

أدركت سبب عدم رغبة إبراهيم بالكلام. إنه يعلّمني أن لا اعتراض في أمر التوحيد، لا تساؤل في اتّخاذ الطريق ويعلمني كيف أكون تابعة لمرشدي. لو لم يصل إبراهيم الرؤوف إلى المعنى في مادة الكلام كيف كان له أن يعود مرّة أخرى إلى سارة؟

كانت كلمة «خذهم» التي نطقت بها سارة نقطة صغيرة على خط القدر العظيم. وغيرة سارة كانت شيفرة هامة لخط الأزل.

كان القدر خطٌ رفيع موجود في سر الأزل.

والقضاء، غلاف السر العظيم.

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

طيور إبراهيم الأربعة

سقطت السماء الزرقاء بانعكاسات ذابلة على وجه إبراهيم الأبيض. فكّر إبراهيم بالطرق التي سلكها في حياته، حياته المليئة بالغربة والفراق. فارق عشه قبل أن يولد، ولادته كانت يتيمة.

والآن يسير في الدروب، وراءه زوجته وطفله. يعلم إبراهيم أهمية الغربة في العبودية. أبوه آدم كان أكبر المغتربين، خاصة وأنه نزل من عالم مختلف تماماً إلى هذه الدروب.

كان إبراهيم يفكّر بمشاعري في العالم المعنوي. تذكّر رغبته باليقين الذي يعيشه، وفكّر بكوني أخضع لامتحان الوصول إلى اليقين.

يفكّر إبراهيم ببعث اليقين الذي أراده بعد موته، يرغب بأن يعيش حالة اليقين كأنه يعيشه. لأن اليقين في إحدى معانيه هو الموت، لأن اليقين يُخلق عبر الموت. قال الله حول رغبة إبراهيم بالوصول إلى اليقين بموضوع البعث بعد الموت:

«خذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم».

فعل إبراهيم ما طُلب منه وجاءته الطيور. كان إبراهيم يعرف سرّاً آخر لهذه الطيور. إنهم العائق في وصولنا إلى اليقين إنهم المشاكل التي داخل الإنسان. عندما اختار الطيور إنما اختار أنواع الطيور التي ترمز للعوائق الموجودة في أنفسنا. في كلّ جزء من الطيور كان يوجد أجزاء من النفس.

Twitter: @ketab_n

طيور إبراهيم كانت الطاووس والغراب والديك والحمام، وبتقسيمه الطيور الأربعة إنما قسّم أربعة عواطف داخل النفس.

كان إبراهيم يراقب تقسيمي لطيوري، والآن جاء دور الذبح جاء إليّ، لأن اليقين بالنسبة للعباد يتم عبر الامتحان الذي يمرّون فيه. عندما كان يذبحني شعر بألمي كأنه يجري في قلبه، وكأنه يرى كيف أمسكت تخبطات الطيور عندما كانت على وشك الانفلات من يدي.

تابع إبراهيم في البداية طيران الطاووس من داخلي، كنت أنظر إلى الطاووس وهو يغادر، كم كان طيرانه جميلاً، حتى وهو يبتعد كان جميلاً وجذّاباً. فتح كل أجنحته، كانت مساحة الألوان ساحرة. كل لون ينفرد بجاذبية خاصة. انسلخ شيء من داخلي، أردت أن أقول له «لا تذهب» أردت الإمساك به، أردت أن أقول له: «أعطني بعضاً من ريشك». بقيت فترة من الزمن مترددة في أن أطيّره أو أمسك به، هل كان عليّ أن أمسك ريشته الحمراء؟ حاولت الإمساك به فهرب وبقيت ريشاته في يدي، سقطت على الأرض. طار الطاووس كعروس مدللة وضاع في أعماق السماء. تحقق ذبح الطير الأول. لم يبق سوى بعضٌ من ألم داخلي.

ربما في هذه الأثناء كان إبراهيم يحدّث نفسه:

- حسناً يا هاجري حسناً، كان الطاووس يرمز إلى الدنيا وها قد طار طيرنا الأول.

جاء الدور إلى الديك، كان طيران الديك أكثر سهولة من طيران الطاووس. نظرت إلى سارة وإلى وما أشعر به، هل أنا مستاءة أم منكسرة القلب؟ لم أكن أياً منهما، لا أشعر بأي غضب منها، ذهبت كافة مشاعري الأولى، لقد نجحت في رؤية سارة على أنها سؤال في امتحان يطرحه القدر عليّ. عندما وصلت لمعرفة هذا السر ذهب شعوري بالغضب تجاه المرأة التي أرسلتني إلى المنفى وفرّقتني عن زوجي وتركت طفلي بلا أب. انتهى ذبح الديك بسرعة كبيرة. لا أشعر بالغضب أو الانزعاج تجاه أحد. لم

Twitter: @ketab_n

يزعجني تطيير الديك كما أزعجني طيران الطاووس، لم يكن له أية جاذبية، شعرت بقشعريرة فقط، أقلقني وجوده.

الآن جاء الدور إلى الغراب. أساساً، العلاقة بيني وبين الغراب ليست جيدة، ولهذا لم يؤثّر بي ذهابه. تركته فوراً. كان الغراب يمثّل الحسد وأنا ليس لديّ غيرة.

جاء الدور بعد ذلك إلى الحمامة، كانت هي طيري الأخير، كانت الحمامة جميلة محبوبة وبريئة بعض الشيء. كان لها مظهراً يبعث على الراحة في النفس. كانت براءتها تُشعر المرء بدفء الولد الصغير. كانت تجذب الإنسان بريشاتها البيضاء وسلوكها الذي يمثّل النقاء. لم أعلم كيف سأتخلى عنها، قلت في نفسي «يمكنني الاحتفاظ بها فهي ليست ضارة».

كأن إبراهيم يخاطبني من عالم المعنى ويقول لي:

- هذا غير ممكن يا هاجر، لا تنغرّي بمظهرها الذي يدلّ على البراءة. فجأة سمعت صوت إبراهيم الحنون في أعماق روحي.

خجلت من إبراهيم. نظرت كمن لا حول له، بقيت نظراتي معلقة على بياض الحمامة البريئة، طارت الحمامة، حلقت فوقي برهة من الزمن، كأنها هي الأخرى لا تريد فراقي. أحببت أن ألوّح لها بيدي، أن أقول لها عودي، لم تكن تبتعد بحال من الأحول. قررت ألاّ أنظر إليها .. هي الأخرى يجب أن تغادرني.

عندما رفعت عيني لأرى الحمامة للمرّة الأخيرة رأيت بضع ريشات منها تتأرجح في الهواء، أخذت نَفَساً عميقاً. الحمامة أيضاً طارت، كانت تمثّل النزوة والهوى. فرُغ القفص الجميل، طيّرت كافة الطيور التي تأسر الإنسان، رميت القفص الجميل في الصحراء، كأنني أسمع أنينه في الصحارى، كلّ فراق يترك في النفس ألماً، وفراق الشيء الجميل هو الأكثر إيلاماً. إن الألم الذي نعيشه بسبب شيء ما يكون بحجم السعادة التي سنحصل عليها في النهاية من هذا الشيء، كذلك هو الأمر بالنسبة للتحرر

Twitter: @ketab_n

من القفص الجميل كان متناسباً، كنتيجة، مع الألم الذي قاسيته أثناء حالة الفراق التي أدّت إلى تلك النتيجة.

توصّلت إلى نتيجة مفادها، أن بعض المشاعر التي نعتبرها هامة ونظنها قطعة من ذاتنا ليست سوى عائقاً أمام سموّنا الإيماني. وهذا يعني أن البعث بعد الموت يقتضي إزالة هذه المشاعر الأربعة بغية الوصول إلى الإيمان الحق.

كأن سكيناً قطّعت أشياءً موجودة فوق قلبي، وضعت مرهماً اسمه «يا باقي أنت الباقي» على ذاتي وكبريائي وعلى جراح قلبي خلّفتها ذبح الطيور الطائرة على قلبي.

طغى دعاء إبراهيم على ذاتي:

«يا ربي.. ولا تُحزنّي يوم يُبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم»؟.

سلامة القلب يسمح بنزول الإيمان فيه، علامات سلامة القلب كثيرة.

عدم إلحاق الأذى بأحد.

عدم الانزعاج من أحد.

ألاّ ننتظر مكافأة من شخص على جميلٍ صنعته له.

عندما التقى إبراهيم بعزرائيل عليه السلام ذات يومٍ سأله:

- لماذا اتّخذ ربي مني خليلاً له؟ فرد عليه عزرائيل عليه السلام:

- أنت تقدّم الخير للناس ولا تطلب منهم أي شيء.

كنت أتبع السر الخفي الذي جعل سلامة قلب إبراهيم توصله إلى مرتبة صداقة الله.

طيّرت كلّ طيور النفس ولم يبقى في قلبي ذرة انزعاج من أحد. أحسست بأن إبراهيم يبتسم من عالم المعنى على قلبي المتمسّك باليقين.

استقر الاطمئنان في قلبي.. وحولي طيور القلب تخفق بأجنحتها.

Twitter: @ketab_n

التغيّر

كنا امرأتان، وكانت حصّتنا من القدر أن نتقاسم شخصاً واحداً في نسيج هذي الحياة. ثمة ألم في قلبَيْ كلينا. القدر الذي لا يمكن لامرأةٍ أن تقبله في انعكاس وحدة الحياة هو تقسيم القلب إلى جزأين. تتمثل دوّامة الألم، التي لم يستطع قلب المرأة فهمها أو الوصول لإدراكها، في تقاسم سر الفؤاد خلال خفقات وحدة القلب وقبول تقاسم حبيب الفؤاد..

أنا وسارة، الآن، نمثل ثنائي هذا التقاسم.. نحن زوجتان في تقاسم شخص واحد وتقاسم حصص العشق، ما كنا نعيشه هو خفقات يائسة لقلب يسعى لشطر المحبة إلى شطرين. كان إبراهيم بين قلبين، لم يكن ما جرى عبارة عن صراع قلبين للدخول في قلب واحد، بقدر ما هو صراع سارة لأن تكون في هذا القلب، لأن تكون بمفردها.. إنه ليس قلق الحياة بل قلق الوحدة، ردة فعل على الكثرة..

ما كان عند سارة هو الغيرة وأما ما كان عندي فهو الصبر. ما قيمة العشق لدى من لا صبر لديه؟ سارة أحبّت لكنها لم تكن صبورة، حبها لم يصل إلى مرحلة العشق. أنا أحببت وكنت صبورة، الصبر هو الإكسير الذي يجعل الحب عشقاً. العشق بحجم الصبر. إبراهيم بقي مع سارة مع الحب وأنا بصبري حصلت على العشق.

وأنا الآن في الطرقات وعلى الدروب أمشي، ولكن أين أمشي، أفي الصحارى أم في ذاتي أم على الأرض أم في نفسي؟ في كلّ خطوة أشعر

Twitter: @ketab_n

بحجم التغيّر الذي يطرأ عليّ.. أعلم أنني في المرحلة الأولى لسفرٍ معنوي.. كأنني لم أمشِ في الدروب خلف إبراهيم، كأنني لم أحمل طفلي بين ذراعي ولم أسلك هذي الدروب..

تجرّدت من كل ذاتي، أدركت أن الفراق ضروري من أجل التغيّر. بطاعة تامة لبست ثوبي الجديد، تدثّرت جيّداً بستار التوكّل، يتردد صوت سارة في أذنيّ على الدوام:

- خذها من هنا.

هاأنذا ذاهبة، ذاهبة بعد أن تركت أشياء عديدة.. مشاكل النَفَسِ وقلق الروح. أليس كل نَفَس نأخذه من أجل ترميم جانب من الروح؟ كان هذا الألم بالنسبة لي يعني التخلي عن النفس، تترمم النفس بحجم الألم الذي نعانيه، هذا ما جرى لي.

كأن سارة تناديه من خلفنا قائلة:

- خذها وابنها إلى أماكن بعيدة.

هاأنذا ابتعد أنا وطفلي، أحدنا حزين والآخر بريء، وكيف لربي ألاّ يقبل موقف حزين وبريء؟ إنه موقف العبودية، موقف القلب أمام الله.

ها نحن نبتعد من العالم الدنيوي، كلما ابتعدنا أكثر نقترب من ربنا أكثر وأكثر... التغيّر الذي يطرأ عليّ هو انعكاس هذا السفر عليّ. كان التغيّر مؤلماً، أصعب وأكبر أنواع التغيّر هو ذاك الذي يطرأ على الذات. أن ترمي ذاتك، أن تتخلى عنها يعني الذبح بالسكين، يعني التمزّق.. والانقسام إلى ألف قطعة وقطعة. يجب أن يطرأ على الذات ألف تغيير لكي يجد المرء ذاته.

أشعر بتمزّق غريب في روحي.. السكين.. السكّين تُقطّع ذاتي. لكل امرئ سكيناً مختلفة وسكيني أنا كانت سارة.

أمشي ممزقة، قطعة قطعة.. كم كان الأمر صعباً، النفس تتذمّر من جهة، ومن جهة أخرى شعور ما بداخلي يعلن تمرّده. أشعر بأني عدّاءة بين

Twitter: @ketab_n

هذه وتلك، أذهب إلى هذه لأسكتها بجواب ما ثم أركض إلى تلك لأقنعها. السير في الداخل أكثر صعوبة من السير في الخارج، متعب أكثر ويحتاج للكثير من الصبر. في نهاية المطاف مشيت تاركة كامل ذاتي، قلب محطّم وفؤاد حزين.

تخلّصت من الذات بسرّ التسليم والتوكّل.

كنت دوماً على الدروب وأمضيت حياتي في الترحال والسفر.

كنت أذهب إلى أماكن بعيدة، طريق كل نبي كان يمتد إلى أماكن بعيدة قبل أن يستلم الطرق المعنوية.

كنت أمشي.؟

سندي التوكل ودعمي الصبر..

التوكل بحجم الإيمان والصبر بحجم الألم.

أعلم أن كل الواصلين إلى الحكمة لم يعرفوا النفس الراضية..

تتعدد تعريفات النفس وتظهر مراتبها العديدة، سيقولون عنها:

نفس لا تجرح.

نفس لا تُجرح.

نفس لا تعادي.

نفس لا تعرف الحقد.

نفس تتعلم كل شيء من ربها..

في النهاية يعشش في الأدمغة كل الكلام ليقول:

- هاجر، نفس ذات موقف.

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

مسير المعراج

خطوة خطوة، نقترب من نهاية المسير. نهايات الدروب تبعث على الحزن أكثر مما تبعث على الفرح. الوصول يعني الفراق. مرّة أخرى تتسلل فكرة الفراق إلى داخلي فآلمت قلبي. كم أشبه الأم حواء، ألا يقولون حظ الأم عند ابنتها، هذا صحيح، فهي الأخرى فارقت زوجها ثلاثمائة سنة.

لم يعرف أحد مدى صعوبة الفراق بقدر ما عرفاه. افترقا بسبب الذنب الذي اقترفته حواء، ولكنهما لم يحمل أحدهما الذنب للآخر، فلا حواء اعتبرت ذلك بسبب ذنب آدم ولا آدم اعتبره بسبب ذنب حواء. بقيا ثلاثمائة عام يستغفرا الله على خطأ ارتكباه، وهما يشعران بالحسرة والشوق لبعضهما.

علّمنا أبونا الأول وأمنا الأولى، بدرس واحد دام ثلاثمائة عام، ألاّ نتّهم أحداً في شيء. ولكننا على ما يبدو لم نتعلم.

تجرّأ الإنسان، الذي يتّهم كل شيء باستثناء ذاته، أن يتّهم حتى هذين الشخصين اللذين لم يتّهما بعضهما البعض. قال البشر:

- لو لم تأكلا التفاحة لما كنا طُردنا من الجنة.

معظمنا وقّف عند هذه الفاكهة التي تُعتبر سر الأسرار، لم ندرك أنها ليست سوى شفرة. كان يجب أن تأكل أمُنا حواء تلك التفاحة لكي يولد ابني إسماعيل، وكانَ يجب أن تُأكل تلك التفاحة لكي تغار سارة وأتعلّم أنا معنى التوكّل.

Twitter: @ketab_n

لكي يعيش إسماعيل هجرته الأولى بين ذراعي أمه،

أعيش المعنى الثاني لإسمي مع طفل على حضني، المعنى الثاني لهاجر هو الهجرة.

كانت الشمس على وشك الميل إلى الغروب، نظرت حولي بعينين محمرّتين. لم أعلم كم مرّ من الوقت، كان الزمن يجر نفسه على قدميّ.

أدركت أن الذي حدّد المسار في هذه المسير ليس إبراهيم. نحن النساء كثيراً ما كنّا نعتقد بأننا نمشي وراء أزواجنا، وكنا نظن أن معظم ما نعيشه بسببهم، علماً بأنهم، مثلنا تماماً، كانوا يسيرون خلف أقدارهم.

هذا يعني أن إبراهيم الرؤوف أيضاً لم يكن يعرف، هو أيضاً يسير خلف قدره ويمشي.

صمتٌ... صمتٌ متستّرة بالصمت كإبراهيم، صمتٌ لإدراكي بأن الصمت أدباً، صمتٌ معتبرة أن التساؤل يُعتبر اعتراضاً على القدر.

وقتها فهمت أن مرشدنا الذي يسير في المقدمة هو جبرائيل، أدركت أن المكان الذي يوجد فيه جبرائيل ونبي عظيم هو تجلّي الذات الإلهية فخطفت خطواتي من جسدي ورميتها نحو قلبي. انتهى سيري الجسدي، اكتسب بُعداً آخر تحت قدميّ المتعبتين، انسلخت رجليّ عن الأرض.

هاجرت إلى قلبي. بدون اعتراض.

بدون حقد.

بدون غضب.

بدون استياء.

شعرت بالراحة...

وقتها فهمت سبب راحة إبراهيم وطمأنينته وهو يحثّ الخطى، شعرت بذات الراحة وذات الطمأنينة. وقتها أدركت أن الرياح التي كانت تهب من الخلف، الرياح التي يسمّونها السكينة كانت انعكاس وجود جبرائيل بيننا.

Twitter: @ketab_n

كنت أمشي،

في العجز.

في الفقر.

في الشفقة.

لم أكن أعلم سر الأزل،

لم أكن أعلم بأنه انفتاح مختلف لمسير حزين ومظلوم بدأ بنبي عظيم وطفل محتاج للشفقة وأم عاجزة، حرق الفؤاد وحطّم القلب ولم يترك دمعة في العيون.

لم أكن أعلم،

بأن هذا المسير سيبدأ من القلب أولاً ومن ثم سيترك كل الدنيويين.

لم أكن أعلم،

أنني بهذا المسير بدأت مسيرة نبي آخر.

مشيت دون أن أدري، إلى المعراج...

عندما تنطلق مسيرة امرأة، بعجزها، بقلة حيلتها، وبدموعها المنهمرة، وعندما يكون جبرائيل الصديق الرابع لثلاثة مسافرين، فلا شك بأن هؤلاء سيحتضنون رحمة الرحمن.

كنت أمشي نحو حاتم...

جبرائيل في المقدمة وخلفه أسرة..

مشينا..

إلى العرش الأعظم...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

حكاية العشق

«الاستخفاف بالعالم الدنيا. عشقٌ
ترك الوجود خلفك عشق»

هبطت حكاية العشق داخلي طوال الطريق. بالسير بدأ العشق في كل خطوة، بالفراق زرع عشبه في التراب.. استطال بالألم.. تبرعم بالدموع. عندما وقع أبونا الأول في العشق فارق كل الذين يحبهم، كل الذين أعطاهم قلبه، أزهار القلب، متعة النفس.

عندما وقع أبونا الأول في العشق ظهر الشيطان أمامه، فعاش أول أوهامه، أول دهشته..

عندما وقع أبونا الأول في العشق بحث عن رفيق لوحدته. أمسكت حواء بيد الوحدة.

عندما وقع العشق سقطت حواء داخل أول درجات العشق على سواحل قلب أبينا الأول. أبونا الأول كان أول من ذاق طعم العشق.

كان في العشق امرأة.

عندما وقع العشق كان يوجد العدم من أجل كل أبناء آدم.

في العشق كان يجب أن يُلبس قميص اللا وجود.

عندما وقع أبونا الأول في العشق ركب حصان الفراق. فارق الجنة، وطنه الأول، فارق كوثر قلبه حواء.

Twitter: @ketab_n

كان في العشق فراق.

عندما وقع أبونا في العشق، بداية، كان غريباً.. نزل إلى تراب الدنيا لكي ينمو، ليعطي الشجر ثماراً، ليكون نواة النبوة التي ستعطي ثمرة النبوة.

نزل، من أجل كل من يقع في الحب.

كان أمامنا المسير..

كما أبونا آدم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

كلٌّ امرأة هاجر

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

إلى أين تذهب؟

وقفت الرياح..

وقف إبراهيم..

وقفت الأنفس..

وقف الزمن باضطرابٍ عند نقطة بدء بداية جديدة..

وقف جسدي المتعب بشق الأنفس.. وقفت أدمعي بفرح الوصول..

قال إبراهيم: - ها قد وصلنا..

نظرت حولي، لم يكن ثمة ما أبحث عنه. مكانٌ موحشٌ مُحاطٌ بالجبال في وسط الصحراء. ولكي أزيل احتمال الرؤية الخاطئة مسحت عينيّ المحمرّتين اللتين أتعبهما انهمار الدمع ونظرت من جديد.

جبالٌ عارية، جرداء لا أثر للحياة فيها حرقتها ولفحتها الشمس، أفقٌ هربت زرقته، مصفرٌ مائلٌ للاحمرار كعينيّ، ترابٌ مجدبٌ تبنّى الأصفر واقترب لونه من اللون الأحمر.. إنه مكان لم تطأه رجل كائن حي ولم يستضف أحداً ولم يُقم علاقة مع بشر.. موحش، نائي ومخيف. مكانٌ انفجر بالحمم.. مكانٌ محترقٌ صار لونه بلون الاحتراق..

محاطٌ بالجبال الموحشة، جبل أبو قبيس، جبل أجياد، السور والحيرة.. مئات القمم السود المتشكّلة جرّاء انجراف التربة.. كلّها منتصبة ومدببة.. انتصبت فوق الوادي.. تقف فوقه وكأنها تراقبه.. الجلال ينعكس من كل الأمكنة.

نظرت إلى إبراهيم، كان ثمة خوف يرقد في عينيه يحاول إخفاؤه، لا

Twitter: @ketab_n

احتمال ثالث لهذا المكان فإما أنه يترك انعكاس خوف على الإنسان أو يترك انعكاس أنس عليه.. ثمة شجرة واحدة موجودة في هذا المكان، شجرة Sarha باشر إبراهيم على الفور بإقامة خيمة إلى جوارها. بعد فترة قصيرة كانت خيمتنا جاهزة يحملها عمود من منتصفها..

كان إبراهيم يهمّ للمغادرة، في البداية لم أصدّق ما يجري، كيف يتركنا في هذا المكان الموحش طعاماً للطير والذئاب ويذهب؟ لكنني كنت أعلم أن داخلي تحوّل إلى رمل. سألته:

- إلى أين أنت ذاهب يا إبراهيم؟

واصل صمته من جديد.

كيف يقاطعنا هكذا، كيف يبقى صامتاً دون أن يتكلم معنا، كيف يبخل بكلامه علينا؟

نسيت حالتي كامرأة مهجورة وصرت أفكر، ماذا لو مات ولدي من الجوع والعطش؟ ماذا إن مات قبلي وماذا إن متُ أنا قبله، كلتا الحالتين أمرٌ لا يمكن احتماله..

جمّع قلبي قواه من أجل إسماعيل، التفّت لغتي حول كلماتها من أجل إسماعيل، بحث قلبي المحطّم عن نجدة من أجل إسماعيل، صرخ صوتي المبحوح من أجل إسماعيل:

- إلى أين أنت ذاهب تاركاً إيّانا هنا؟

لا كلام لدى إبراهيم ولا أي شيء آخر، كان يدير ظهره ويذهب، لم أستطع أن أقرأ في ملامح وجهه المشاعر التي تجيش داخله.

العجز والضعف وقلة الحيلة.. كلها بحجم الصحاري، وأما نزولها في قلبي فبحجم احتراق الصحاري.

صرخت مجدداً بصوت مبحوح من كثر البكاء:

- لمن تتركنا هنا وتذهب؟

وكان الجواب أيضاً لا جواب..

Twitter: @ketab_n

رغبة من؟

نظرت خلفه، كان يفارقنا، يفارق قلبي أيضاً ويذهب، كان يمزّق شفقتي مزقاً مزقاً ويذهب، كان يكدّس كل مخاوفه داخلي ويذهب... كان يُظهر عدم رغبته بي وتهميشه لي ويذهب، كان يبخل علينا بكلمة أو كلمتين ويذهب، كان يُبعد طفله عن حضنه المفعم بالرحمة والشفقة ويذهب... كان يتركنا وولدي بمفردنا في مكان موحش ويذهب، شعرت بأعمق قلق شعرت به في حياتي.

قلة الحيلة..

الوحدة..

وفلذة كبدي الصغيرة..

وضعت طفلي على الأرض وركضت خلف الذي أدار ظهره لنا ووجه وجهه إلى الأمام. وقفت أمامه فوقف. نظرت إلى وجه إبراهيم الأبيض المشرق الذي تُحيط به لحية نورانية، وجدت في عينيه العسليتين حزناً وتوكل، رحمة وألم، حسرة وشوق.

بعينين محطّمتين نظرت إلى إبراهيم الذي لم أزعجه يوماً بالأسئلة ولم أجرحه يوماً. كانت عيناه مثقلتان بالشفقة والحسرة ومفعمتان بالأسرار والمعنى. قرأتهما بلحظة وسكبتهما داخلي، أخذت اللغة من حديث روحه وسكبتها في حديث الكلام. قلت:

- يا إبراهيم، برعاية من تتركنا هنا وتذهب؟

Twitter: @ketab_n

لم يكن قلقاً.. نظر داخل عينيّ بهدوء وهو يبتسم، لم تتوقف نظرته عند عيني بل لامست شغاف قلبي، لم يصل جوابه إلى أذنيّ بل وصل إلى فؤادي:

- برعاية الله.

تلاشى خوفي فجأة، فسألته:

- رغبة من هذه؟ فقال إبراهيم بحب:

- رغبة الله.

طرحت عليه ما كان يتوجّب عليّ طرحه من الأسئلة.

حان الآن وقت السقوط في بحر التوحيد، إذن كانت هذه إرادة ربي.. شعرت براحة عميقة.

إذن كانت هذه رغبته..

شعرت بالراحة.. صار إيماني كلام سال من داخلي:

- إذا كان الأمر كذلك لن ينسانا ربي.

Twitter: @ketab_n

كنا إبراهيم، أمٌّ وابنها

أحد معاني اسم إبراهيم هو أبو القوم ومن معانيه أيضاً الأب الرحيم، أبو القوم والأب الرحيم، وردة القلب وبريق الإشراق تركنا في هذا المكان الموحش وذهب، ذهب دون أن ينظر خلفه، أيقن أن النظر يعني فقدان الصبر وأنه رفض الطاعة، وجد أن النظر خلفه يتناقض مع التوكّل.

حملت أم إبراهيم به في العام الذي أمر نمرود فيه بقتل المواليد الذكور. عندما علمت الأم بأنها حامل أخفت حملها وذهبت إلى مكان نائي، وأخفت إبراهيم بعد ولادته في المغارة حتى كبُر.

أمٌّ وابنها، كنا إبراهيم الذي في المغارة.

نظرت خلف إبراهيم طويلاً، شعرت وكأننا لن نفترق فيما إذا بقيت عيناي معلّقتان به. بعد ذلك تلاشى إبراهيم واختفى خلف إحدى التلال، وبقيت عيناي معلّقتان بالفراغ. كم يوجد تلال في هذا المكان.. كم يوجد جبال، الأحجار والصخور في كل مكان، مكانٌ يتناسب واسمي.

شبّهت الجبال الرمادية بقلبي. وحبات الرمل التي حرقتها الشمس شبّهتُها بعينيّ اللتين تبكيان منذ أيام. كنت مهمومة بقدر ما يحمل هذا المكان من الهموم. عجباً، ألا تهطل السماء أمطاراً على هذا المكان؟ ألم تشرب هذه التربة المجدبة رشفة من الرحمة؟ ألم ترخي كُوَمُ القطن التي تُسمى سحاب بظلالها على هذه الأرض أبداً؟.

لا أعلم. كل ما أعرفه هو أن المكان يمطر وحدة عليّ. صار المكان

Twitter: @ketab_n

ياقوتاً، الضعف خفّض صوته كي لا يزعج القاطنين هنا، لا شيء هنا يكسر جدار الصمت، حتى صوت الرياح يأتي مبحوحاً يكاد لا يُسمع، ضرب طنين الصمت أعماق روحي.

جالت عينيّ بنظراتها خلف إبراهيم من جديد.

بتُّ امرأة وحيدة بين هذه الجبال، بين ذراعي طفل صغير، كانت عيناي تبحثان عن زوجي، عن يد الشفقة، منذ الآن بدأ شوقي إليه يتعاظم، منذ الآن بدأت الحسرة تملأ فؤادي، خفق الفراق بجناحيه وحدةً فوق روحي.

ظننت أن إبراهيم سندي في هذه الحياة، ظننته ملجأي الذي ألجأ إليه حين أخاف ويواسيني حين يستبد بي الضيق.

الآن، لم يعُد موجوداً، تحيطني الجبال من الجهات الأربع، كأن إبراهيم صامت كصمت هذه الجبال، تركنا في هذا المكان وذهب.

طغت غشاوة على عينيّ، فجأة خافت الوحدة من الجبال وانعكس خوفها داخل روحي. أصابتني قشعريرة، نظرت إلى السماء علّني أجد فيها ما بحثت عنه في الأرض ولم أجده، جالت عيناي في الأفق السارح فوق الجبال، بحثت عن طائر عن أي شيء يخفق بجناحيه في هذا الفضاء.. لكني لم أجده.

لفّتني الوحدة من أربع جهات، نظرت إلى التلّة التي ابتلعت إبراهيم خلفها. أم وابنها كنا .. إبراهيم المحاط بالنيران من كل الجهات...

Twitter: @ketab_n

كنت حواء الثانية

عندما فارقت حوّاء آدم ونزلت إلى الدنيا، وطن الغربة، امتلأت السماء والأرض باستغاثات الوحدة والحسرة. أُصيبت الأرض والسماء بالذعر لدى سماعهما استغاثات أول إنسان، أصغى العالم، الذي لم يسمع من قبل كلام الإنسان، لهذا الصراخ بدهشة:

- آدم.. آدم..

خافت الكائنات من هذا الصوت وانقطعت أنفاسها من شدة الخوف، تلوّت الوحدة حول حواء بصمتٍ، صرخت حواء وبخفقان يبحث عن رفيق لها في صمت الوحدة القاتل:

- آدم.. آدم..

كم هو غريب أن يعيش الإنسان المنحدر من آدم حالة بحث دائمة عن آدم ما يعتقد بأنه يطرد الوحدة عنه. وأنا أيضاً عندما تُركت في عالم الوحدة نشرت في المكان أنين أصواتٍ أخرى. الأرض سمعتني وسمعتني السماء، سمعتني الجبال والأحجار والصحاري. صرخت بأنين مثل كل العالم معارضة أمنا حواء:

- اللَه، الله..

لجأت إلى الدعاء وأنا أبكي. أصغت كل المخلوقات لهذا الأنين الخارج من نغمات قلب امرأة جريحة.

ثم انجذبت إليّ السماء،وبعدها العرش، لندائي: الله...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

أنا امرأة مذكورة في الأدعية

رجع إبراهيم.

أبعد وجهه عنّا..

أبعدنا إبراهيم إلى مكان بعيد كي لا يقع في شراك القلب.

ترك إبراهيم صناديقه وذهب.

لن يرى، بعد الآن، الخطوات الأولى لولده ولن يسمع كلماته الأولى ولن يرى ابتسامته الأولى. بهذه المشاعر وهذه الأفكار فارقنا النبي الحنون، تجمعنا محبة الزوج والزوج وتجمعنا محبة الولد ويجمعنا انعكاس اسم الرحيم وتجمعنا المودة. أعلم أن إبراهيم فارقنا وهو متمسك بالاسم الرحيم، متمسك بالاسم الودود.

ضاع في الأفق بين الانعكاسات الصفراء للصحراء.

عندما وصل النبي الحنون إلى جبل القعدة الموجود في ذي الطوى التفت نحونا كمن يضمّنا وتوجّه إلى ربه فتحوّلت شفقته إلى دعاء. بالدعاء وصلت حسرته إلى العرش. في حضن العجز تمسّك بذاك الباب العظيم الصديق بكل ما لديه من شفقة ورحمة. كانت عيناه مغرورقتان بالدموع وقلبه مفعم بالشفقة، توجّه إلى الباب الأمين ليطمأن بأن هذا البلد الذي خاف منه بلداً أمين. ضمّنا إلى صدره بدعاء يحضن الكائنات عبر العصور، سالت رحمته دعاءً دعاء، امتدت رحمته إلى العرش دعاءً دعاء، انهمرت دموعه دعاءً دعاء. في نقطة صفر العجز طلب سرّ الكائنات الأزلي:

Twitter: @ketab_n

«ربُنا إنّي أسكنتُ من ذريّتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»

لم نكن نعلم بأننا خرجنا إلى دعاء نور عظيم، نبي عظيم في ذروة الفكر، امرأة مثال العجز وطفل هو انعكاس الرحمة، أسرة مجبولة بالرحمة توجّهت بدعاء الرحمة للعالمين.

عندما كان إبراهيم يقيم دعائه وهو يتّجه نحونا تحوّل كل شيء في إلى دعاء. نودي على كل الناس وكل الكائنات من أجلي، دُعي كل الجماد والكائنات الحيّة إلى الوقوف إلى جنبنا، لكي لا يتركوا ولده وزوجته لوحدهما. كانت دعوة أبلغها الله لكل الأرواح. عرفتنا كل الأرواح، علمت كل الأرواح بالهجرة التي قمنا بها. أُريدَ لكل روح أن تعيش هذه الهجرة، سيكون كل إنسان مثال لهاجر مرّة واحدة في حياته.

طلب إبراهيم من ربه أن تتجلّى الرحمة من أجلنا، أحاط البلد الذي نحن فيه بالدعاء، حضن فراقنا بالدعاء.

أحاط كلينا بالدعاء.

من الآن وصاعداً سيصل دعاء إبراهيم إلى كل الأرواح في هذه البلدة، في هذه المدينة...

دعاء إبراهيم سيُسمع في قلوب كل المؤمنين.

ذراعا النبي إبراهيم ستضم هذا المكان. كانت هذه البلدة حفنتين عظيمتين،

حفنتا إبراهيم، كل الأدعية ستصل أولاً إلى حفنتي إبراهيم وبعد ذلك ستصل إلى العرش.

Twitter: @ketab_n

سعيتُ إلى الحاء والميم

كنتُ أمّاً ...

كنت أقبض على الحياة بين ذراعيّ، كأن الكائنات انطوت بين ذراعيّ. نظرت إلى وليدي، كم كان يشبه أبيه، شعرتُ بثقل الحنان بين ذراعيّ. شعرت بألم الرحمة.

كنت أمّاً ...

الأم تعني الوجود.

لم يكن في حضني طفلٌ بل العالم برمّته..

الطفل طلب ماءً، الطفل طلب طعاماً.

سال العجز من بين ذراعيّ بصمت، امتلأ حضني بالفقر، نظرت حولي.. كان العدم يجول في المكان. انتظرت نَفَساً، انتظرت حركةً، لم يكن هناك أي شيء.

كنت أمّاً ...

الأم تعني القوّة.

تسلّحت بالأمومة، ازدادت حيويتي بالأمومة، ثارت داخلي مئات العواصف. كان من الممكن ألاّ يحدث أي شيء. ولكنني كنت أمّاً. نظرت مجدداً إلى وجه طفلي البريء باحثة عن أبيه فيه. دار في خلدي أن أقول:

- آه يا إبراهيم.

لكنني لم أستطع، لم أستطع الغضب. هذا أيضاً كان سبباً. كان ثمة أحدٌ ما يجعله يعيش كل ما يعيشه، لم يكن برنامج قدري بيده.

Twitter: @ketab_n

كان إبراهيم خطأً في برنامج القدر، القلم كان بيد شخص آخر. لم أستطع معاندة القدر لم أستطع الاعتراض عليه.

نظرت إلى طفلي من جديد.

كنت أمّاً...

طفلٌ وأم...

اتحاد الحب والحنان، انعكاس الرحمن والرحيم في مرآة واحدة.

حركة بدأت تتشكل على تلك الشفتين الصغيرتين، بحث عن شيء ما نظر حوله كمن يريد شيء. مطّ شفتيه لكنه لم يجد أي شيء. بشهقة صغيرة عبّر طفلي عن رغبته، بدأ يبكي. بداية فرحت ببكائه كصوت كسر جدار صمت الأشياء، ارتحت لإحساسي بوجود كائن حي بين ذراعيّ. ثم شعرت بعجزي، كيف لي أن ألبي حاجات هذا الطفل في هذا المكان؟

هنا صحراء، والطفل يبكي. وأنا أشعر بعجزي.

كنت أمّاً...

تُشعل نار المواقد في كل مكان توجد فيه أمّ، تتراقص ألسنة النيران. المكان الذي تتواجد فيه أم يصبح وطناً يُصبح عشّاً...

أنا أيضاً كنت أماً. جالت عيناي السوداوان اللتان استقرا في المكان كعيني نسر. بهدوء، وضعت طفلي على الأرض.

سعيتُ،

بتعبٍ..

بوحدةٍ..

بعجزٍ..

بقلة حيلةٍ...

سعيت.. ظاهراً، في حبّات الرمل التي انخفضت فيها حرارة الشمس، وفي الحقيقة، في أرجاء عالم المعنى اللا محدود.

سعيتُ،

Twitter: @ketab_n

في التوكل..

في التسليم..

في الرضا..

سعيت، من الحاء إلى الميم، هنا لم يكن يوجد سوى حاء وميم. الكائنات كانت ميماً والحاء مفتاحها. كان كل العالم يطلب ميماً من خلال سعي مفعم بالعجز لامرأة صارت حاءً. سعيت عندما أحصيت طبقات الكائنات، سعيت عندما أحصيت السموات السبع والأراضي السبع، كان السبعة عددُ اللا نهاية، سعيت عندما وضعت يدي على سر اللا نهاية.

كيف لي أن أعلم كيف خرجت الحاء إلى دعاء الميم؟ كأنني لم أسعى من تلّةٍ لتلة، بل سعيت من الأرض إلى السماء، من الثريّا للثرى من الفرش إلى العرش...

سعيتُ إلى عشق السكون...

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

عشق السعي

كان إبراهيم في البعيد يدعو لنا، وأنا خرجت على دعاء أشياء أخرى.

كانت الصحراء حارة.

الصحراء تريد ماء.

الظمأ في الصحراء يعني الموت.

نظرت إلى المكان بعينين تبحث عن الماء. ها هو ذا في البعيد على تلك التلال يلوح بريق ماء. تركت طفلي على الأرض وركضت باتجاه الماء، ما أبحث عنه ليس أكثر من حفنة من الأزرق. ركضت، كنت على وشك الوصول إليه.

ما هذا؟ ما أبحث عنه ليس هذا، إنها رمال الصحراء الصفراء التي مالت إلى الأبيض. خدعتني عيناي، هاتان العينان بدأتا تخلطان بين الألوان من كثرة البكاء.

ماء...

رشفة ماء فقط...

ها هي على تلك التلة المقابلة، عليّ أن أركض، بسرعة أكبر، كل ثانية في الصحراء قد تنقذ حياة الإنسانٰ عليّ أن أجد الماء قبل أن تخور قواي وقبل أن يموت ولدي من الظمأ. ها قد وصلت إلى التلة. ما الذي جرى للأزرق الذي رأيته من التلة المقابلة؟ كأنه تبخّر وتطاير فجأة، لم أجد شيئاً ولكن كان لا يزال لديّ أمل. يجب عليّ أن أجد الماء.

Twitter: @ketab_n

أخذت نَفَساً، كان الجو حاراً والسماء تنزل أشعتها حمماً من الجهات الأربع، لا يوجد شيء في المكان. لا شيء سوى ظلي الذي تساقط على الرمال. نظرت إلى ظلّي، رفيقي الوحيد في هذه الصحراء الحارقة، أحسست بوجوده وبحيويته. شمس وتلال وصحراء ووحدة وامرأة تبحث عن الوجود، أمٍّ تأمل بالحياة، صرخت بشفاه جافّة:

ماء..

حفنة ماء..

من أجل صراع أم من أجل البقاء..

ماء...

نقطة ماء... ماء لتستمر حياتها ولتبقي ابنها على قيد الحياة. ظمأ أم للحياة...

لا شيء أيضاً على هذه التلة، لأنظر إلى تلك، وأركض أركض، ثوبي يمنعني من الركض أسرع، عليّ أن أركض بسرعة أكبر. يديّ ليس هي التي تتدلّى على رجلي بل ثوبي هو الذي يتدلّى، جمعت ثوبي بعناية، جمعت عجزي وقلّة حيلتي ووضعتهما في ثوبي كمن يضع طفله، وأنا أبحث عن الرحمة ملأت ثوبي بكل شيء قد يوصلني إلى الرحمة.

عجزٌ.

قلة حيلة.

فقر.

وحدة.

غربة. وبين كل هذا وذاك طفلٌ صغيرٌ.

كان ثوبي مليء للغاية.

كأنني اكتسبت قوة، تابعت الركض. راحت تخفق أجنحة الرحمة لأمٍ.

تراكمت على جبيني حبّات عرق تعب الحياة كما تتراكم كتابات قدري

Twitter: @ketab_n

المرسومة على جبيني. كانت هذه حبّات عرق أم تشبّثت بالحياة من أجل ولدها...

كنت أركض. خُدعتُ للمرّة الثالثة. ربما أجده على تلك التلة، ركضتّ للمرّة الرابعة.

توقّفت، أخذت نفساً عميقاً ثم ألقيت نظرة على كل التلال التي قفزت من واحدة منها إلى أخرى.

شبّهت التلال بسارة وإبراهيم. بينما كنت أطلب الرحمة من سارة لم أجد سوى الشفقة عند إبراهيم.

والآن.. أنا في البعيد البعيد. في مكان لا توجد رحمتك فيه، أنا الآن معدومة الشفقة، وقفت بين تلّتين.

يجب أن تكون إحدى التلال سارة والأخرى إبراهيم. نظرت إلى التلّتين بأحلام محطّمة. نعم، كأن الذي أراه الآن حقيقة، انظر إنه يلمع كالماء، على التلّة التي شبّهتها بسارة.

بُعثت أحلامي من جديد، لململت أحلامي وثوبي وركضت.

على هذه التلة ثم إلى تلك، كمتشرد يقفز من حجر إلى حجر قفزتُ من تلة إلى أخرى بحثاً عن الماء.

ركضت إلى سعي العشق.. سبع مرّات..

ركضتُ عندما عددتُ مراتب النفس السبعة، في السابعة آمنت نفسي بأن لا رحمة على تلك التلال.

أرخيت ثوبي الذي كنت قد جمعته وجلتُ بنظري في المكان.

كأنها سقطت من ثوبي أحلامي كلها وعجزي وقلة حيلتي. أخذت نفساً عميقاً، نظرت إلى ولدي بعينين مغمورتين بالحزن.

كنت أبكي، نظرتُ إلى الأفق، كان أحمر..

كان الليل يبكي في عينيَّ.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

قف! قف!

أنزلت حمولتي، فتحت ستائري الواحدة تلو الأخرى. اجتزتُ كل الحواجز التي تفصل بيني وبين بي. الزوج.. الأشياء، البيت، الطعام، الشراب.. الوجود وكل ما اعتقدت أنه موجوداً رميته كلّه.

وجودي صار عدماً، نظرت إلى نفسي، كنت امرأة وكان العجز الجانب الرمزي من قِبل ربي. نظرت إلى ولدي الذي بين ذراعيّ، هو اسم الشفقة في الأمومة ببعدها الوجودي، جمعت وجودين في ذاتي. بينما كانت الموجودات تختفي جعلت من هذين الوجودين درجة إلى الوجود.

دخلت بوحدتي في العدم.

ماهية المكان الذي أنا فيه تسمح لي أن أعيش في العدم. انتظرت رياحاً مطهّرة من أصوات الطيور خالية من أصوات أوراق الشجر.. رياحٌ تتناغم مع وحدتي وتساعد عدمي بوجودها. لمست جلدي بحثاً عن رياح رطبة تهب في هذه الصحراء كمن يبحث عن يد صديق، كانت الرياح متقطّعة كأنها هي الأخرى لا تمتلك مجالاً للوصول إلى أحد. تتجنّب ملامستي في وحدتي.

رميت الذي كان بيننا .. تطهّرتُ.

اغتسلت بالعدم، تجفّفت بالوحدة.

ها قد حان الوقت لرمي واحدة أخرى من الموجودات.

ركضتُ من تلّة إلى أخرى للبحث عن ماء لولدي، لم أستطع العثور على ماء، لم أستطع إيصال ولدي إلى الرحمة. سيموت ولدي من الظمأ.

Twitter: @ketab_n

الأسباب منعتني من الوصول إلى الماء. قلب الأم مفعم بسحاب الرحمة الحبلى بالمطر. أصعب لحظة بالنسبة للأم والتي لا يمكن تحمّلها أن ترى موت ولدها.

لا أريد رؤية تلك اللحظة، ناهيك عن أنني لا أحتمل رؤية موت ولدي في حضني الذي هو مهد الرحمة. تركت ولدي على الرمال الحارّة وابتعدت عنه.

كنت أبكي..

إمرأة تبكي في صحراء قاحلة.

أم تبكي وحيدة، وحدي هنا، لا أحدٌ يواسيني، لا كتف أُسند عليه رأسي، لا يد تمسح دموعي ولا قلب يشاطرني أوجاعي. كنت أبكي بمفردي بكل أوجاعي.

إمرأة غريبة تبكي في بلاد الغربة ظنّاً مني أن فلذة كبدي سيهلك من الظمأ.

كنت أبكي ككل الأمهات التي تبكي دائماً.

كان قلبي ينسكب إلى الخارج مع هذه الدموع. كنت أبحث عن حلّ وأنا أردد الدعاء لربي بعينين مغرورقتين بالدموع. ابتعدت عن ولدي. وصلت إلى واحة في صحراء تسمّى حمَد.

بكيت وبكيت..

بكيت، بما يُغرق الصحراء، بما يجعل نيران الرحمة تترطّب بهذه الدموع البريئة، بما يبعد التمرد والاعتراض عن دموعي، بما يجعل التسليم والتوكّل يندمج مع هذه الدمعات. بكيت وأنا أعلم مدى أهمية هذه الدمعات في العبودية. بكيت وأنا أحمد ربي بنهر دموع الرحمة الذي يسري في جسدي القاحل...

لم أفكّر، حتى اللحظة، بأنواع البكاء، الآن علمت أن للبكاء أنواع عديدة وأن الدموع تنسكب من عواطف مختلفة لدى الإنسان.

النفس تبكي.

Twitter: @ketab_n

القلب يبكي.

الروح تبكي...

أسوأ أنواع البكاء هو بكاء النفس، لم يكن في دموعي بُعدٌ نفساني، فأنا لا أبكي على دنيا فقدتها ولا أبكي على رغبات نفسانية لم أستطع الحصول عليها.

أبكي كأم.. كزوجة، كعبدة فقيرة وعاجزة..

قلبي هو الذي كان يبكي، وروحي كانت تساعد قلبي على البكاء.انسكبت الدموع من عينيّ، كأن وادياً امتلأ بدموعي.

من الآن وصاعداً سيطلقون على هذا المكان اسم «وادي الدموع»....

لم أعد أجرؤ على النظر خلفي كي لا أرى ولدي وهو يموت، كنت متحلّية بالتسليم بأمر الله والتوكّل على ربي العظيم. ولكنني أمٌ، وكانت شفقتي وعطفي بحجم التجلّي الذي أخذته من ربي. كيف كان لي أن أدفن ولدي بيديّ؟ ثم ما الذي كان بوسعي فعله بمفردي إلى جانب قبر ولدي؟

كلما كنت أفكّر كانت الدموع المنهمرة من عينيَّ تتحول إلى سيل جارف. دموعُ أمٍّ، دموعٌ امرأة كانت أول من لامس رمل هذه الأرض الذي لم تطأه رجل إنسان من قبل. اغتسل الرمل بدمعي، تطهّر وازداد بريقه.. آهٍ يا إلهي، كم هو غزير هذا الدمع. لأول مرّة أفكّر بأن الدمع بَرَكة.

الرطوبة التي أضفتها دموعي على الأرض أنعشت روحي، استجمعت كل ما لدي من جرأة ونظرت إلى المكان الذي يوجد فيه ولدي...

ما هذا؟ أكاد لا أصدّق دمعي..

حياةٌ تنسكب، برّاقة لامعة، تحت رجلي ولدي في هذه الصحراء حيث يحبو.. كأن الحياة التي سكبتها من دمعي تحولت هناك إلى صنبور ماء.

هل خيالاً ما أراه أم عاد من جديدٍ إلى عينيّ السرابُ؟ مسحت عينيّ بيديّ الجافتين جيداً وفتحتهما مجدداً دون أن أكترث بالحرقة التي تكويهما ونظرت.. أرى الآن البريق الأزرق بوضوح أكبر.

Twitter: @ketab_n

قفزت بدهشةٍ، ركضت بفرحٍ..

صرخت وصرخت..

كنت أريد أن أمنع سيل الماء كي لا يضيع بين رمال الصحراء. رحت أصرخ وأستغيث وأنا أحيط الماء بحفنات التراب:

- زم.. زم.. (قف، قف)..

بينما كنت أشكّل كومات صغيرة من الرمل حول الرحمة المتدفقة رحت أردد صرخات مفعمة بالشكر وذكر الرحمة:

- زم.. زم..

دموعُ أمْ أضحت رحمةً وقلبها النازف تحوّل إلى نبعٍ. هذا الماء متدفق كحنان الأم، لن ينضب أبداً، سيتدفق في هذه الصحراء الحارقة ممتّلاً الأم. ستكون دموعي بَرَكة له حتى يوم القيامة.

زمزم.. استغاثة أم من أجل الحياة..

زمزم.. دموع أم..

زمزم.. عجز أمْ حوّل العدم إلى وجود..

زمزم.. صبرُ أمْ سكب رحمةً..

زمزم.. توكل..

زمزم.. وقفة تسليم..

زمزم.. امرأة ليست متمردة..

زمزم.. محبة امرأة..

زمزم.. تحوّل حنان امرأة إلى ماء..

زمزم.. خفقات قلب امرأة..

زمزم.. سعيٌ..

زمزم.. عشقٌ..

زمزم.. أمٌ..

Twitter: @ketab_n

كنت امرأة صلاة

انتهى ركضي المضني، نسيم زمزم داعب روحنا. شربنا حتى الانتعاش، شربنا حتى الارتواء، جرى رزقنا مع الماء، كنّا كما الجنين في رحم أمه، هذه كانت حالتنا. والمكان أيضاً كان كرحم الأم، كل الأمكنة هنا محاطة بالجبال، كان المكان وكل شيء في المكان في حالة سجود..

تجاوز إبراهيم بكّة منذ زمن وهو يدعو، قلب أب، قلب زوج توسّل لربه بالدعاء..

- ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام.

عندما فارقنا إبراهيم توسّل إلى ربه وطلب منه أن يخلق الأسباب ليتحول هذا الوادي الغير ذي زرع والذي لم يرَ الحياة أبداً إلى مكان للاستقرار:

- ليُقيموا الصلاة عند بيتك المحرّم.

أحضرنا إبراهيم إلى هنا من أجل العبودية لله. وطلب من ربّه بالدعاء بأن نصل إلى ربنا بالعبودية، وبالدعاء ركض إلى أبواب ربه كي نقيم عبوديتنا على أحسن حال:

- ربّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربّنا وتقبّل الدعاء.

وضعت جبيني على الأرض وحمدت ربّي على عطائه، سجدت كما سجد أبونا الأول آدم، كنت أعلم أن هذه البلدة ستصبح بلد صلاة، ستكون الحياة هنا مخصّصة للصلاة، وسيكون اسم صاحب هذه البلدة في المستقبل صلاة.

Twitter: @ketab_n

كان المكان في حالة «ميم» انطوى على نفسه على شكل سجدة، كنّا بلدة تجمّعت وانغلقت على ذاتها . السجدة وصال والسجّادة أدب. سيكون هذا المكان مدينة الوصال من جهة والأدب من جهة أخرى. كل شخص سيأتي إلى هنا سيحافظ عل ذهنه وسيندم على أنه منجرف إلى الحياة الدنيا، سيكون هذا المكان تجلّي الجلال. وهنا سيتم ذكر اسم اللّه على الدوام.

أصبحت ميماً للمرّة الأولى من قبل سارة وأُرسلنا إلى هنا بدعاء ميم أخرى، في كل حالة ميم جديدة ثمة انفتاح لأبعاد جديدة في الميم.

كانت الميم معروفة بصمتها بين الحروف.

الدنيا ميم والكائنات ميم، والمكان الذي نحن فيه ميم كاملة، وأنا ميم عاجزة في دعاء ميم العالم، وضعت رأسي في حالة سجود وبدأت الدعاء لكي تكون ميم الكائنات من ذريّتي.

Twitter: @ketab_n

حكاية العشق

«العشقُ، أن تُبقي رأسك منتصباً-
تحت المصائب وهي تنهمر من السماء كالمطر»

العشق صاحب ميم، مثل الألف لام ميم.

وأنا كنت ميماً مثل هذه الميم. العشق شفرة، شفرة الوجود. وثمن فك هذه الشفرة أن يتخلّى القلب عن ارتباطه ببعد الوجود، أن يقطع كل ارتباطاته، وأن يئن أنيناً وهو يقطع كل رابطة له، وأن يُلقّبه الذين لا يعرفون حاله بالمجنون.

العشقُ،

أن يرمي الجسد محبته التي على صفحة النفس...

أن يمشي القلب في بُعد المحبة وهو يردد «ألف ألف»...

العشق، حبّ القلب.. المحبة لعبة النفس.. العشق، حُرمة القلب.

العشق، أن تنقذ المحبة ذاتها من يد النفس وترتمي على راحة القلب. العشق، هو الآلام التي يعانيها أثناء مغامرة الارتماء.. هو السلاسل التي يريد تحطيمها .. هو الآهات التي تصدر من خفقات القلب من أجل التطهّر من قيود أسر النفس..

العشق، هروب النفس من بئر الجمر المسمّى حبّ إلى خضم بحر القلب..

Twitter: @ketab_n

المحبة ساحة جاذبية الأنا .. العشق وقع أقدام القلب..

العشق، ميمُ نوافذ القلب المسمّى قلب، المليئة بالطلاسم.

العشق، دقّات القلب المضنية من أجل فتح أبوابه المليئة بآلاف الأسرار.

للدخول من الأبواب ثمة باب أيضاً موجود داخل هذا الكنز المسمّى إنسان ولهذا الباب مفتاح، المفتاح مخبّأ في حضن الشفرة المسمّاة حسرة، يُطلق عليه اسم فراق.. والفراق هو الإكسير الذي يولّد العشق.

الفراق هو السّر الذي يجعل المحبة عشقاً.. المحبة التي لا تعرف ألم الفراق لن تصل إلى كيمياء العشق.. لن تمسك بخميرة العشق.

سرُ تحطيم غلاف المادة مخبّأٌ في كيمياء الفراق.

لا يمكن عبور العشق من شراك النفس مجازياً إلاّ من خلال الحفاظ على نيران الفراق..

العشقُ، هو شكلُ ارتماء الميم في حضن القلب...

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

ديار الميم

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

لسان وحدة الليل

صحراء... ليل...

ظلامٌ... وحدةٌ...

يلدا: أسود. شب: ليلة. شب اليلدا: أطول ليل.

كانت شب اليلدا خاصتي على وشك البدء، لأول مرّة بحياتي سأقضي ليل بمفردي في هذا المكان النائي.

لملمت الشمس أشعتها وغادرت السماء، موجة من الاكتئاب طغت على روحي. حلّ الليلُ، بدايةً لفّ الظلام المكان بانعكاسات صفراء، أصاب الحزن روحي المبتسمة رحمةً بسواد الليل. تمسّك النهار بالليل، بقيت أنظر إلى الشمس التي غادرت السماء بهدوءٍ. أردت أن أغلق الليالي بالنهارات وأن أخفي الظلام بستارٍ من الضياء. لكنني لم أنجح.

لامست وجهي نسمة فاترة تبشّر بمجيء الليل. ارتمت انعكاسات كآبة الصحاري الحارقة والتلال المصفرّة على روحي الوحيدة.استقام جسدي المتعب برجفة حزينة. ذُعرتُ بغرابة الذين تركهم أحبّتهم، حزنٌ عميق أصابني.

فكّرت، كيف سيعيش قلبي العتاد على الذين تركوني، بدايةً جديدة.

يحلُ الليل رويداً رويداً، لا أحد.. وضعت ولدي في حضني. أمسكت بولدي الذي ارتوى من زمزم، ضغطته على الضياء الذي في حضني وكأنني أريد إبعاده عن الظلام، هو الآن بين يدي النوم المطمأن..

Twitter: @ketab_n

أرخى الظلام ستائره الظليلة فوق الصحراء.

أول ليلة في الغربة، أول ليلة لتدثّري بستار غامض يُدعى الليل في وسط صحراء واسعة، أول ليلة سأفترش الأرض فيها وألتحف السماء.

خطر لي أن أنادي الشمس بأن: قفي، لا تتركيني بمفردي في هذا الظلام وتذهبين، رغبت أن أمسك بالأشعة الصفراء كشعر سارة وأجذبها..

كثيراً ما شعرت بالوحدة؛ في قصر فرعون، إلى جوار سارة، ولكن هذه الوحدة كانت مختلفة. عموماً، لأول مرّة أعيش وحدةً بلا وجود، أنا الآن كآدم وحواء.

أبونا آدم أول من رأى الظلام الأول، خاف يومها من انسحاب النهار وقدوم الليل. ما هذا الأسود؟ ظن بأن هذا السواد الذي يراه لأول مرّة سيستمر دوماً. انتظر بخوف، وبعد ذلك جاء الشفق وبدت إمارات النهار وبدأت أشعة النهار تلامس عينيه وقلبه. فرح أبونا آدم كثيراً وعبّر عن فرحه بصلاة الشكر. أبونا آدم أول من أقام صلاة الفجر، شكر ربه الذي خلق الظلام والضياء. لم تكن الشمس هي مالكة الضياء، كان ثمة مالك لليل والنهار.

غربت الشمس. فكّرت بإبراهيم الذي لا يحب الذين يغربون. كان مُحقاً، منِ المنطق ألا يرتبط القلب بالذين يغربون، كان يجب عليّ ألاّ أربط قلبي بالذين يغربون بل بربي الذي لا يغرب.

كأن الظلام خبّأني بين جناحيه، الليل ستر غربتي، وضعت ولدي في حضني واستلقيت فوق رمال الصحراء الحارقة. كنت متعبةً. رأيت أول نجمة في أول ليلة صحراء غامضة، كانت النجوم تسّاقط فوقي.

حنيت رأسي، كنت منفردة بربي، انسحب كل شيء من الوجود لم يكن هناك أحدٌ سواه. ألهذا السبب سحب الشمس من السماء؟

ألكي ينعدم كل شيء؟ ألكي تختفي المادة؟ أم أن ربّنا يقطع علاقتنا مع المادة التي رأيناها طيلة النهار ويسحبها من الوجود ويقول لنا: «انظروا إليّ»؟ أم يقول: «يكفي تعلّقكم، طيلة النهار، بالأسباب»؟ أم أنه حين قال:

Twitter: @ketab_n

«وجعلنا الليل غطاء لكم» كان يريد أن يقول أنه حرّرنا من ظلام المادة؟. أم كان يجعل من الليل ستاراً على عيوننا التي ترى المادة؟.

فكّرت وأنا أحدّق بالظلام.

الليل هو لحظة التواصل مع الرب.

الرب خلق الليل من أجل ذاته. النهار كثرة والليل وحدة من أجل أهل العشق. من خلال الليل رأيت كافة لا وجودي بوضوح، عرفت الوجود في نقطة صفر العدم.

كانت أول ليلة، لا بيت ولا باب. لا باب يُغلق عليّ، فكّرت ما الذي يريده ربي من كل هذا؟ كان يقول لي:

- يا هاجر، أخذت كل الأبواب منك، وأنت أيضاً أغلقي كل أبواب أحاسيسك على المادة، وافتحي قلبك على أبواب الدنيا .

فهمت. سلّمت مرّة أخرى، وضعت الليل شاهداً وأسلمته لمالكه وأمسكت الظلام من يده وأوصلته إلى ذاك الباب.

تلحفّت بالصبر..

أسلمت إرادتي الجزئية للإرادة الكلية، تركت التدبير وبدأت أنتظر التقدير..

كان تسليمي..

تسليم..

كان يجب أن أقبل كي أسلّم..

توجّهتُ نحو ربي بمشاعر الرضا .

فجأة هبّت رياح سموم الوحدة وألقت بسارة نحو أحاسيسي التي تطهّرت. سارة، تنام الآن في بيتها في لحظة الغربة السوداء المسمّاة ليل. هاجت أمواج الغيرة لكي ترتطم بسواحل روحي، لكنها لم تصل. روحي في عالم الناضجين. رميت أطماعي الشخصية خلفي وبدأت خطوة خطوة أسلك طريق الإتحاد مع الواحد .

Twitter: @ketab_n

كأن الشمس غاصت في عينيّ. انطوت عيناي على احمرار غروب النهار وانطوت بشرتي على صفرة الأفق.

غاب الاحمرار مع غياب الشمس.

انسكبت فوقي سماء لازوردية لم يطأها نظر إنسان.

فهمت شيئاً آخر، كانت حرارة نهار الصحراء تترك مكانها لبرودة ليلها .. التفّت الحرارة الهاربة بالبرد.

شعرت بالبرد ....

بشرة جسدي المتعب..

النعاس الذي في عينيّ..

الوحدة التي تعيشها روحي..

كلها بدأت تشعر بالبرد...

Twitter: @ketab_n

أن تكون ألِفاً في الوحدة

الوحدة، هي شعور الإنسان بأنه بعيد عن الإنسان الذي سيلجأ إليه. وأنا افترقت عن كل شيء يمكنني اللجوء إليه. هدأت العواصف التي هبّت من داخلي في بئر الوحدة. اصطدم بحر الوحدة بروحي وراح يضربها بموجاته التي لا ترحم. وفي النهاية ارتطمت كافة مشاعر نفسي بالشطّ وارتمت على الساحل. كنت هادئة أعيش جمال الهدوء بعد العاصفة. شعرت بالطُهر، أدركت معنى الراحة بعد أن رميت كل حمولات همومي من قلبي، خطوت نحو سواحل قلبي وكان طريق بحر القلب مفتوحاً. بالدعاء المتواصل رميت مجدافي إلى أوسع ميناء، وصلت إلى أكبر ميناءٍ وأنا ألهث. وصلتُ إلى أقوى باب، متعبّةً ومرهقةً. بهبوب عاصفة الوحدة وصلت إلى «وجود» كلّ العدم...

في صباح أول ليلة وحدة بدأتُ يومي بهذه المشاعر. كانت السماء ترتقي على درجات السماء. جلستُ أمام الخيمة الصغيرة التي نصبها إبراهيم. كان ولدي لا يزال في مهده يغض في نوم عميق وجميل.

استقمت في المكان الذي أجلس فيه، هل أنا مندهشة أم محتارة لست أدري، نظرت حولي.. جبال وحجارة وصحراء. كم هو صعب أن تعيش البداية في مكان ما، كم هو صعبٌ أن تكون أنت البداية..

صفعت الوحدة روحي بحسرةٍ، وجدت أنه لا يزال الوقت مبكّراً من أجل الحسرة ضمن تدفق الزمن. لماذا تزنّرت روحي بحسرة الفراق، لست

Twitter: @ketab_n

أدري.. تحرّكت شفتاي تأهّباً للكلام، الوحدة سدّت الطرق أمام الكلام، أُغلق فمي قبل أن يُفتح.. فكّرتُ؛ لا يتكلّم قلبُ من يتكلّم لسانه، والذي يتكلّم قلبه لا يمكن للسانه أن يتكلّم. تركت نفسي لتمتمات قلبي، لأول مرّة أدرك قوة كلام القلب ولا محدوديته..

تجوّلت تحت ظلال الوحدة.

كأن كل الأمكنة توشّحت بوشاح الوحدة.

كل حبة رمل كانت تنقل الوحدة إلى روحي.

كانت الوحدة تأخذ خميرتها من روحي.

نظرت إلى ذاتي، كنت كألفٍ طويلة، ألفٌ بمفردها. نظرت إلى الأسفل كان ظلّي كالنقطة، أليس هذا معنى أن يكون الإنسانُ إنساناً؟ أن تكون ألفاً يعني أن تضع الخطوة الأولى على نقطة هي سرُ تكوين الألف.

وضعتُ خطوتي، في سر الوحدة، على نقطةِ الألف.

امتلأت روحي بآيات الشكر.

كانت الألف وحدةً..

الإنسان هو الذي يمكن أن يكون ألفاً في عالم الوحدة....

Twitter: @ketab_n

بريقٌ على الجبين

أيامٌ، شهورٌ مرّت بصمت ووحشةٍ، كأن الزمان توقّف في هذا المكان. ليس ثمة زمان يمرّ في مكان لا حركة فيه. هل الزمان يتوقّف في كلّ مكان ليس فيه عمل، لست أدري. جلست أمام الخيمة. إسماعيل مثلي، مهموم ووحيد. لا صديق له ليركض ويلعب معه. إنه طفلٌ تعلّم كيف يلعب لوحده، جمع حبات الرمل وعمل منها أكواماً. إسماعيلُ مختلفٌ، ربما لأنه عمل من «اللا صديق» صديقاً له. كان مختلفاً في كل شيء، وأكثر شيء مختلف فيه هو جبينه.. البريق الذي على جبينه...

عاد شريط ذكرياتي مجدداً إلى تلك الأيام. تذكّرت أول مرّة أدركت فيها ذاك البريق الذي على جبينه، ورعب سارة المفعم بالغضب. في ذاك اليوم أيضاً استيقظت باكراً. كانت أول إشراقات يوم تخلّص فيه الجمال والشباب من الظلام وانسكب، بحزمات أشعته، في الإنسان. كنت سأعجن لأصنع خبزاً، كان من الممكن في أي لحظة أن يأتي إبراهيم ومعه ضيف، إذ لم يكن يجلس على مائدة ولا يضع لقمة في فمه دون ضيوف. أحياناً لم يكن يأتيه ضيوف، حينها كان يبقى جائعاً أياماً منتظراً قدوم ضيف. ذاع صيت مائدة إبراهيم المفتوحة للجميع، الممتلئة دون نقصان.

سارة أيضاً استيقظت باكراً في ذاك اليوم. قلَّ نومها كثيراً في الأيام الأخيرة وكذلك كلامها، كانت تقضي معظم وقتها بالعبادة.

اقتربت سارة منّي وهي تفرك عينيها، نظرت إليّ ثم حدّقت بوجهي

Twitter: @ketab_n

أكثر. خفت كثيراً وتساءلت فيما إذا كنت قد ارتكبت خطأً ما. أردت إخفاء خطأي مهما كان نوعه فواصلت العجين بغية الهروب من سارة. فنادتني قائلة:

- سارة، ارفعي رأسك.

رفعت رأسي بهدوء ونظرت إليها. كان بياض بشرة سارة يميل للون الأصفر، وابيضّت شفتاها بعد أن غادرهما الدم، كيف يمكن أن يتغير لون البشرة من لون إلى لون؟ أي تغيّرٍ هذا؟.

كان بإمكاني إدراك مدى ازدياد ضربات قلبها، كأنها أصيبت بالجمود، عيناها ويداها وجسدها، كأن جسمها تحجّر.. وكذلك لسانها تجمّد كجسدها، لم تكن تُبدِ أية حركة. فكّرت للحظة أن ملك الموت قد حلّ بجسدها، هل كانت ستسلّم الروح وهي تنظر إليَّ؟.

خفتُ خشية أن أكون قد ارتكبت خطأً ما.

في الحقيقة كانت في الأيام الأخيرة تنظر إلى كل حركة أبديها على أنها خطأ وكل كلمة أنطق بها عيب. سحبت يدي من العجين، استقمت بجلستي، بحثت عن كلام يحقق السلام والهدوء في عالم سارة الغاضب. قلت بأدبٍ:

- سيدتي..

استمرت سارة بنظراتها، ضربت ركبتيها بيديها. طغى الألم على وجهها وسحبت آهٍ عميقةٍ. كأنها ليست آهٍ بقدر ما هي استغاثات قلب محطم.

تأكدت سارة من صحة الخبر. كانت تريد التأكد أكثر، صرخت بألمٍ ودهشةٍ. انسكبت من فمها كلمة فجّة وغليظة:

- لقد أضعته.

واضحُ تماماً أن سارة تذكّرت ذاك اليوم. كم من مرّة سمعت هذا الحديث من سارة، لم تكن سارة، وهي تروي تلك الحادثة، تجعلك تشعر

Twitter: @ketab_n

فيما إذا كانت تحكي عن بشارة أم عن بلاء عظيم. بدأت تفرك عينيها المليئتين بالألم مع كل كلمة تنطق بها:

- إبراهيم ليس له أولاد، إن هذا الأمر يحزنني أكثر مما يُحزن إبراهيم. لقد هرمتُ وكذلك إبراهيم، وكما يبدو لن نحصل على السعادة في هذه الحياة دون هذا الكائن المسمّى طفل. ذات يومٍ جاءني إبراهيم ليزفّ لي بشارة جبرائيل وقال لي:

- يا سارة، بشّرني جبرائيل بأنه سيأتي من صلبي نبيّان. عندما زف إبراهيم لي هذه البشارة فرحت لأجله ولكنني حزنت على نفسي. فلقد هرمت لدرجة أنه لم يعد بإمكاني إنجاب طفل، فقلت له:

- يا خليل الله، لم يأتيك مني أي ولد حتى الآن ولا أعتقد أنه سيأتي بعد ذلك، فهل سيكون هذان النبيّان من امرأةٍ أخرى؟

إبراهيم أيضاً لم يكن يعرف كيف سيتحقق هذا القدر. فهو راضٍ بما يأتي من عند الله وبما لا يأتي أيضاً، ربما كنت أنا غير راضية بما منعه الله عنّا. فكّرت وقلت لا شك بأن بشارة جبرائيل ستتحقق ولهذا يجب أن يتزوج إبراهيم من امرأة أخرى، فخطرتي فوراً على ذهني يا هاجر.

كانت سارة على الدوام تنظر إليّ كمدينة لها، وكانت دائماً تحافظ، في نظراتها، على حيوية الثمن الذي سأدفعه مقابل تقاسمي زوجها معها. وقتها أدركت ما هو الذي فقدته. كانت سارة، دائماً، ترغب بأن يشعَ على جبينها النورُ الذي على جبين إبراهيم. فهل كان ما تقصده هو النور الذي رأته على جبيني؟ أم أن النور بدأ يشع على جبيني؟

رفعت يدي إلى جبيني لأتحسسه.. عجباً ما هذا؟

انبلج الفجر بإشراق عظيم.

كانت الجارة قد أتت إلينا للمساعدة، صرخت فجأة:

- يا هاجر، هل تدركين النور الذي يشعُ على جبينك؟.

معنى هذا أنه بات بإمكان الجميع رؤية هذا النور.

Twitter: @ketab_n

الشمس تشرق من جبيني.

استقمتُ بجلستي.

على جبيني استقر النور الذي سيُشرق على الكائنات.

على جبيني خميرة وجود العوالم وتجلّي الأسماء.

اسم الرحمن واسم الجلال واسم الودود ... وكلّ الأسماء تجمّعت على جبيني بوميضها ..

بات الآن على جبيني نورُ وجود الكائنات الذي بدأ يصرخ على جبين أبينا الأول آدم وانتقل بعده من نبيٍ إلى نبي.

هذا يعني أن النور الذي على جبين إبراهيم انتقل إلى جبيني..

هذا زمان الشكر..

تقدّمت بالشكر بمشاعر تحتضن الكائنات داخلي...

كانت سارة امرأة ذات فراسةٍ، واضح أنها شعرت به.. بانتقال نور الكائنات إليَّ..

وبارتماء الحظ العظيم في حضني.. غارت سارة، وكيف لها ألاَّ تغار؟..

منذ أن التقى نور الكائنات مع إسماعيل ﷺ، بدأت سارة تشعر بألم فقدان هذا النصيب..

تحوّل هذا الألم إلى نارِ غيرةٍ كالحمم..

Twitter: @ketab_n

أولُ سلامٍ للحياة

تعاقبت الأيام يوماً إثر يوم، تمزّقت الوحدة بيني وبين إسماعيل، وماء زمزم استمرّت بتدفّقها. رمت الجبال وحشتها بعد انعكاس روحينا عليها، صارت تشعر بالإنس معنا، أحبّتنا الصحراء ونحن أحببناها..

بدأت الحياة تدبُ في جسد الصحراء وبدأ المكان ينتشي بعد أن تخلّص من ضيقه ووحدته، بدأ إسماعيل يتعرّف على التراب وعلى احتضان الأمكنة، انتشت روحي وصارت أكثر هدوءاً.

سمعتُ أول صوت للحياة. كانت الطيور التي أرخت فوقنا ظلالاً صغيرةً وراحت تغرّد في السماء، أول ترحيب وأول سلامٍ جاء من الطيور.

لم نعُد وحيدين. فقد بات لدينا طيورٌ تحلّق فوق رأسينا، تجلب الأخبار لنا من البعيد وتزفّ بشارة وجودنا إلى البعيد. كان هناك قادمون جدد، بدأت الكائنات باكراً تتدفق إلى بلدتنا الوحيدة إلى بيتنا الخالي، إلى أول مكان بنته أمٌ وابنها.. هذه البلدة السفح، هذا المكان المُبعد الذي لم يكن لأحدٍ أن يعتقد بأن رُجل كائن ستطؤه، كانت تفصح عن نفسها بأنها ستحتضن البشر. قلت:

- ومن سيمرّ من هذا المكان؟ ثم حدّثت نفسي قائلةً:

- عجباً هل يمكن لابن آدم أن يمرّ من هذه الأماكن المجهولة المختبئة بين الجبال؟..

ها قد جاء قادمون، وكأن مجيئهم لم يتأخّر كثيراً. في البدءِ سُمعت أصوات سحابة الغبار وبعدها أصوات الحيوانات وبعدها أصوات البشر. ها

Twitter: @ketab_n

إنهم يأتون، كانوا كُثُراً. هل أتوا ليحتلّوا مكاناً لأنفسهم أم ليأخذوا ماءً أم ليطردونا من هنا؟

عبرت داخلي موجة من القلق، لكني لم أخف، فلنا صاحب هو الذي وضعنا هنا، وحسبما يرغب صاحبنا سيتصرّف هؤلاء القادمون.

جاؤوا، ألقوا التحية. امتزجت حيرتهم مع الدهشة. رأوا امرأة وطفلاً وماءً يتدفق بالحياة في صحراء لم تطأها رجل إنسان من قبل. سألوا باحترام حالة معنوية نزلت عليهم:

- رأينا الطيور، فقلنا لا شك بأن هذا المكان فيه ماء. فجئنا لنُسقي حيواناتنا ونملأ قُرَبنا ونرتوي وننتشي، ولكن إن سمحتِ لنا يمكننا البقاء هنا، فإذا قبلتِ بمشاركتنا بمائك فإننا سنجعلك شريكة لنا في حيواناتنا. فقلت لهم:

- يمكنكم البقاء هنَا، ويمكنكم أن تحتلّوا مكاناً لكم وتستوطنوا فيه. ولكن ملكية الماء ستبقى بيدي.

عندما احتفظت بملكية الماء صارت السلطة بيدي. فأنا كنت أول القادمين وربّي أرسل هذه الماء من أجلنا. ملكية الماء في الصحراء تعني ملكية الحياة.

الجُرهُميون أناسٌ طيّبون، كان بإمكانهم أن يقولوا:

- أنتِ امرأة ضعيفة، ومن تكونين حتى تتسيّدي وطفل صغير علينا..

لكنهم لم يقولوها، كان بإمكانهم إسكاتي، لا بل وكان بإمكانهم قتلي. لكن لم يحدث أي شيء من هذا، قبلوا بشرطي دون أي اعتراض. استقروا، كانوا أول ضيوف لي، أول أصدقاء لي، أول جيراني وكانوا أول رفاق دربٍ جاؤوا تلبية لدعاء إبراهيم.

كانت تتأسس مدينة أمّ، هذه المدينة ستكون أم المدن كافة.

بعد ذلك كان الاسم، الاسم أول شيء تم تعلّمه. أطلقنا اسماً على هذا المكان الذي جعلناه وطناً لنا، من أطلق هذا الاسم وكيف أطلقه، لم نعلم. نطقنا باسم ألهمه الله لقلوبنا:

- بكّة...

Twitter: @ketab_n

ثلاث سنوات من الحسرة

تعاقبت الأيام، تعاقبت السنون، تدفّق نهر الأسرار المسمّى زمن مع ألف مصير ومصير. كبُر إسماعيل، فرح بالجيران الذين حولنا. ألهمنا الصبرُ قدرةً على تحمل الفراق ومشاعر الرضا على ما نعيشه. كلُ يوم يمرّ كنا نشعر فيه بنعمة الله علينا فنحمده ونشكره. وأدركنا حكمته فينا أخذه منّا.

مزجنا الشكر بالذكر والذكر بالفكر وجمّلنا الحياة ولكن بالرغم من كل ذلك كنا نشتاق لإبراهيم. كانت الحسرةُ رفيقنا في مكان غربتنا..

بين الحين والأخر كنت أركّز عينيّ عند خط الأفق، ولم أكن لأستطيع منع نفسي من التساؤل: «هل هذا هو؟» كلما قدم ضيف جديد. كنت أعلم أن إبراهيم حسرتي، كأنني لن ألتقي به في هذه الحياة. وكلما كانت تزداد الحسرة كان يزداد داخل روحي سحرُ الحب وقوته. هل الحسرة موجودة من أجل ذلك؟ لست أدري.

أما حسرة إبراهيم فقد كانت ضعف حسرتي؛ إنها حسرة على زوجة وحسرة على ولد. فبالنسبة له قلقه علينا أصعب من حسرته، ما هي أحوالنا؟ كيف نعيش؟ لا خبر يأتيه عنّا. على هذا المنوال مرّت ثلاث سنين. ثلاث مرّات قصرت النُهُر وطالت الليالي، ثلاث مرّات مرَّ على هذا المكان، الذي لا يعرف الفصول، ثلاث فصول صيف حارّة وثلاث فصول شتاء معتدلة. بعد صبر دام ثلاث سنوات طويلة سأل إبراهيم ذات يوم جبرائيل عن أحوالنا:

Twitter: @ketab_n

- يا جبرائيل، كيف حال هاجر وإسماعيل؟ فقال له جبرائيل:

- لا تقلق، إنهم بخير. قدّم اللهُ لهم ماءً، وأرسل إلى جوارهم أناساً طيبين وجيراناً طيبين.

حتى ولو عرف إبراهيم ذلك فهو في النهاية إنسان ويريد أن يعرف كيف سيعاملنا ربُّه. ارتاح إبراهيم بعد سماعه الخبر البشارة الذي زفّه له جبرائيل. ولكن رغبته برؤيتنا كانت تزداد يوماً بعد يوم. ذات يوم سأل سارة قائلاً:

- أيمكنني الذهاب لرؤية إسماعيل؟

لم يحدّثها عني، لكن سارة امرأة ذكية، لم تبخل عليه بقول كلمة اذهب ولكنها عبّرت مباشرة عن رغبتها حين قالت:

- اذهب، ولكن عُد فوراً ولا تبقى هناك طويلاً، ولا تتحدّث مع هاجر.

في الخارج حشدٌ غفيرٌ من الناس، الكلُ يتحدث، إنهم يرون لأول مرّة في بكّة مركوباً لم يرونه من قبل وإنساناً لم يرونه من قبل. اتّجهت نحو مصدر الصوت، رأيت المركوب فتعرفت عليه مباشرةً، إنه بُراق إبراهيم، واضح أن القادم هو إبراهيم.

خفقاتٌ غريبة أججها داخلي فراقٌ عمره ثلاث سنوات، خطواتي فقدت خياراتها بالتوجّه نحو إبراهيم.

ضم إبراهيمُ إسماعيل إلى صدره بقوة رغبةً منه بإزالة حسرة بُعاده عنه. راح يُذيب في صدره حسرةَ ثلاث سنوات. الأب يتحدّث السريانية وإسماعيل يتحدث العربية. الفراقُ أصاب اللغات أيضاً.

اقتربت منهما. التقيت مع إبراهيم وجهاً لوجه. أدركت أن حظر الكلام لا يزال سارياً. لغاتنا سكتت عن الكلام، تراكضت نظراتُنا إلى نظراتنا، فهمت ما قاله إبراهيم، سمعت كلَّ ما قاله. لم يكن الكلام يكفي لما يريد قوله، الوقت ضيّق على ما يريد الحديث به، أدركت أن الكلام عليه ممنوع. قالت عيناي:

Twitter: @ketab_n

- أجل. وقالت:

- بالمقابل. وقالت:

- كل ما تقوله على رأسي. وقالت:

- كل ما تقوله هو ذاته ما أريد قوله.

أدركت أيضاً سبب اختلاف لغة إبراهيم. اللغات واحدة بالنسبة لمن يتكلمون لغة الروح. هناك كلُّ اللغات تنهمر من المتكلّم، بعد ذلك تُلبسها الأنفس كلمات مختلفة.

أدركت أن إبراهيم سيذهب فوراً.

إذن سارة يقول: «ستعود قبل أن تترجّل عن براق». كان إبراهيم لا يزال على ظهر براق، وضع إسماعيل على الأرض، التقت نظراتنا من جديد، تحدّث وتحدّث بكلام الروح عن كل ما يريد الحديث عنه.

ثلاثُ سنوات تحدثناها يوماً يوماً ولحظةً لحظة وتكلمنا عن مشاعر عشناها خلال ثلاث سنوات، وتحدّثنا عن وحدتنا مع ربنا، أكثر ما شعر إبراهيم بالامتنان والشكر له هو الطريقة التي عاملنا اللهُ بها، كان ممتناً بسبب الرحمة التي ملأت هذه الجبال المقفرة بالبهجة وأنبتت الأعشاب المخضرّة وجعلت الصحراء تضج بالحياة وبالماء وتفرح بوجود الناس فيها، كان ممتناً بسبب الرحمة التي تتدفّق في كل لحظة إلى هذا المكان. كنت أعلم أنه يذهب من جديد وعلى لسانه الدعاء وفي قلبه نحن.

ذهب...

طار براق، وبلحظةٍ ضاع في الأفق. أي سرعةٍ هذه؟ إنها كسرعة الروح، روحي أيضاً طارت خلف إبراهيم. كنت أعلم أنّ سارة لن تصل إلى هذا المستوى. أدركت أن الذي يعيش الحسرة ليس جسداً بل روحاً.

لم تعلم سارة أبداً أنني أنا أيضاً موجودة على ظهر براق..

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

فضول النساء

ذهب إبراهيم ولكن الفضول طغى على النساء الجُرهميات، كنّ يتحدّثن عني. عن سبب عدم اعتراضي وعن سبب صمتي. أمن الممكن أن يصل الصبر إلى هذا الحد؟ أيمكن أن يأتي كل هذه المسافة ولا يتحدث بأي كلمة؟

كنت صامتة، حافظت على صمتي دوماً. لم أشتكِ لم أتشاجر مع أحد، هل أنا سلبية إلى هذا الحد؟ كلاّ. إذ كيف كنت أقفز من تلّة إلى تلّة كما الصقر وأنا أبحث عن الماء وكيف كنت أسعى..

جاءت إحدى النساء الجُرهميات الطويلات إليّ، وبهدف استقاء الأخبار ورغبةً منها بإزعاجي من خلال فتنة الأنوثة التي بداخلها، سألتني:

- يا هاجر، لم لا تتحدّثين عن سارة أبداً؟ علماً بأن زوجك يقيم معها دائماً وأنت تعيشين هنا بمفردك دون زوج..

نظرة مبتسمة إلى المرأة التي تشتعل بداخلها نار الفتنة. لم أعلم فيما إذا كانت ستفهم ما سأقوله ولكنني وجدت أنه من المناسب أن أقول لها كلمتين، فقلت للمرأة الطويلة:

- أتعلمين أنه لدى ابن آدم مكان يُقال له النفس، هو الذي يقرّب الإنسان من الشيطان ويجعله جاراً له. وأنه لدى الإنسان أيضاً مكان يُقال له القلب، هو الذي يجعل الإنسان دائماً مع الله. المكان الذي يُقال له النفس هو مكان استماع الشيطان وحديثه. يقيم الشيطان في مكان النفس. فإذا

Twitter: @ketab_n

كان مستقراً في النفس فإن الإنسان يتكلم كثيراً ويغضب لأي شيء ولا يرضى عن شيء ويعترض على كل شيء ويرى عيباً في كل شيء يجد أن كل شيء سلبي ولا يرى الوجه الجميل لأي شيء، لأنه لا يوجد للشيطان أي وجه جميل.

خافت المرأة الطويلة وسألتني وهي ترمقني بنظرات مفعمة بالشك:

- في أي جهة من جسدنا هذا المكان؟ فقلت:

- لا مكان محدد له، يمكن أن يكون في أي مكان في الإنسان، يمكن أن يقيم عرشاً في أي مكان ويتربّع عليه. فقالت المرأة مبدية تخوّفها:

- حسناً، ومن يجلس في القلب؟ فقلت للمرأة التي تتحدث بسرعة حصان النفس:

- أتسألين من يقيم في القلب؟ إنه رب العالمين، عرشه هناك...

نظرت المرأة إلي باستغراب ودهشة، واضح أنها حتى اليوم لم تشعر بشيء في ذاك المكان ولهذا قلت لها:

- أتعلمين ما الذي يفعله الواصلون إلى سرّ القلب؟

يصمتون دائماً.

لا يغضبون.

لا يقاطعون أحداً.

لا يجرحون أحداً.

لا يُجرحون من أحد.

يرون الجمال في كلّ شيء.

لا يتعلمون شيئاً من ابن آدم بل من ربهم.

يأملون وينتظرون منه كل شيء.

يتكلمون وهم صامتين، يتكلمون بطريقةٍ تجعل العصور تصغي إليهم.

أبونا آدم تكلّم بصمتٍ، ولا أزال حتى اليوم أسمع صوته...

احمرّ وجه المرأة الجُرهومية المفعم بالدهشة. فقلت لها:

Twitter: @ketab_n

- أرسل الله الصحف لإبراهيم. اسمعي ماذا يقول ربُنا:

«العاقل، يقسّم أوقاته إلى ثلاثة أقسامٍ؛ يمضي القسم الأول بالتوسّل لربه وبالتفكير بآثار قدرته، ويمضي قسمه الثاني في محاسبة نفسه عن الأعمال التي قام بها والتي لم يقم بها من أجل المستقبل، ويصرف وقته الثالث في تلبية احتياجاته مراعياً الحلال والحرام في مأكله ومشربه. العاقلُ، يراعي الوقت والزمن فعليه أن يعرف ما الذي سيعمله ومتى سيعمله. عليه أن يحفظ لسانه من النطق بالأشياء الفارغة، فإذا فكّر الإنسان بأن الكلمة التي سينطق بها عبارة عن عملٍ وسيدفع ثمن هذا العمل فإن حديثه سيكون قليلاً».

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

بين برزخين

الحياة مستمرة، وكل يوم يمرّ كان إسماعيل يكبر، وتزداد أحاديثنا. مساعدة جيراننا لنا سهّلت علينا الحياة كثيراً. كم كانت هناك أمورٌ تستحق الشكر منا.. خبزنا وماؤنا، جيراننا وأصدقاؤنا، وأيضاً ربنا الذي دبّ الحياة من أجلنا في هذه الصحراء الموحشة.

لم أستطع أن أنسى تلك الأيام التي كنت أقفز فيها من تلة إلى أخرى وأنا أقول: رشفة ماء. لقد انتهى الركض الجسماني ولكن ركضاً من نوع آخر بات يضني روحي بين الحين والآخر. فكلما كنت أقول: «ها قد انتهى» و«ربحت من جديد» أجد نفسي مرميّة في ميدان جديد أصارع أمراً آخر، كنت كمصارع متعب.

يوجد في برزخ قلبي سباقان وعدّاءان ماهران.

كنت بين برزخين.

كنت أركض بكل ما أوتيت من قوة بين سباقين.

كنت بين الحين والآخر أشعر بأن طاقتي نفُذت، وكانت روحي بين مدٌ وجزر بتموجّات أفقدت أملي بريقه. تارةً تراني ممسكة بعاصفة في آبار حالكة الظلمة في دهاليز النفس وتارةً تراني أحلّق في آفاق قلبي الناضجة. مرّة كنت أركض إلى نفسي وأخرى إلى قلبي، كما الركض من الصفا إلى المروة. عندما كانت الحسرة تضجُ داخلي كنت أتذكّر سارة. فؤادها البعيد عن الحسرة البعيد عن الغربة يُدمي روحي. وقتها كان جنود نفسي

Twitter: @ketab_n

ينتفضون ويذهبون إلى عالم سارة الذي لم تعصف فيه ريح الفراق. كانت نفسي تموج بحس الانتقام. كنت أرغب بالتمسّك بكل سهام اللعنات والتمنّي لها بالشرِّ، آهِ كم كنت أرغب بتدمير عالمها المحظوظ بآلاف كلمات التمنّي المفعمة بالآهاتِ والقهر والألم والحسرة.

وقتها كنت أيضاً أخجل من الله، وكان قلبي يمتلأ بأحاسيس الخجل. وقتها كنت أهرب من نفسي، كنت أهرب منها بسرعة أكبر من سرعة مجيئي إليها.

أدركت أن هذا الميدان هو ميدان إزعاج الإنسان. ميدان يجعل الإنسان يشعر بهمومه. إنه زنزانة تجعل الإنسان يتألم متذرعاً بالآخرين. لأنه يجعلك ترى كلَّ شيء مظلماً وقاتماً. يُخفي عنك كافة الجوانب الإيجابية للأشياء. وضعت له اسماً:

- ميدان الألم، ديار الأحزان... ووضعت للنفس اسماً:

- السجّان...

ركضتُ وطرقت باب القلب، عاب عليّ القلبُ تلك الكلمات السيئة التي بقيت متراكمة على شفتيَّ. نسيتُ تلك الكلمات، رميتها إلى مكان بعيد كما يرمي المرء لقمةً عفنةً من فمه. لم أحتمل الراحة التي يشعر بها القلب، كأن أحدٌ من داخلي بدأ يركض باتجاه النفس. كما هاجر التي لملمت ثوبها وراحت تركض بين الصفا والمروة صرت كعدّاءٍ يركض مسرعاً بين القلب والنفس. رحت أرمي نفسي مرّة إلى هذه وأخرى إلى تلك..

جررت نفسي إلى باب القلب مجدداً، حنيت ظهري خجلاً وشكوت له عن ما يفعله السجان، نظر القلب المجروح إليّ وكأنه يقول لي: «ماذا فعلت بي؟» ثم وبّخني كأنه يقول لي: «كيف وقعت بيدِ النفس؟».

أمسكني القلب من يديّ، أخذ هاجر التي فقدت طاقاتها بالركض غير المجدي وتركها عند باب الرب، كنت متعبة وخجلة. طأطأت رأسي أمامي ووجّهت نظراتي إلى راحة كفي. نظرت كمن ينظر من بابٍ إلى

Twitter: @ketab_n

الداخل، كأن أحاسيسي علُقت بأماكن معينة، بدأ الدخول من باب راحة كفّي بالدعوات، بات القلب لغةً اشتكى من كل عصابات النفس واحدة واحدة، قال كل ما يعرفه عنهم. تحدّث بكل ما يعرفه عنهم وكأنه يتحدث لصديق طالباً منهم المساعدة لكي يتغلب عليهم.

نظرت نفسي إلى المكان بدهشةٍ، اكتشفت أن سارة لم تكن تزعجني، بل أنا الذي كنت أزعج نفسي. قالت مشاعري كافة لنفسي:

- هيّا اذهبي، اذهبي من هنا أيتها النمّامة التي تُفسد سعادتنا، أيتها السجّانه التي ترينا كل شيء ظلام.

أضحى القلب دعاءً، من رأسه وحتى أخمص قدميه... انسكبت الأدعية في كل مكان:

- يا ربي، لا تتركني بين يديّ النفس. لا تجعلني ممّن يتمنون الشر للآخرين.. لا تأخذني من نقاء القلب وتلقي بي في عبودية النفس.. اخلق الصداقة ما بيني وبين قلبي ودبّ العداوة ما بيني وبين نفسي. لا تجعل لي عدو سوى نفسي. كن صديقي.. اجعل كل الناس أصدقاء لي...

بالدعاء عبرت البرزخين...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

خبر

استمرت زيارات إبراهيم لنا. أصبح لديه إذن للإقامة عدّة أيام في كل زيارة. كان عشّنا المؤلف من شخصين يزداد بريقه وينتشي بالحب والفرح خلال الأيام التي يزورنا فيها إبراهيم، ويصبح لدينا وقتٌ مفعمٌ بالحب، كما كانت أيامنا وأشهرنا تمر بسرور وفرح مليئة بالبركة والخير الذي يتركه مجيء إبراهيم إلينا. خلال مجيئه الأخير إلينا أحضر معه خبرين.

نظر إبراهيم إليّ تارة وإلى إسماعيل تارة أخرى وقال:

- ثلاثة أيام لم يزرنا فيها أي ضيف، كنت صائم فتوجّهت إلى الله وتوسّلت إليه كي يبعث لي ضيفاً. قبل الله دعائي على الفور، وأرسل لي ثلاثة ضيوف رائعين.

فرح إبراهيم، الذي بقي أياماً يراقب الدروب، بمجيء هؤلاء الضيوف الثلاثة، وأحضر لهم على الفور عجلاً كان قد حضّره لهم.

أقيمت مائدة إبراهيم الخليل، حلّت بركة مائدة إبراهيم وطغت رائحتها على المكان ولكن هؤلاء الضيوف الرائعون لم يمدّوا أياديهم إلى المائدة. خاف إبراهيم عندما رأى الضيوف على هذه الحال، فالعادة هنا تقول بأنه إذا أراد أحدهم أن يُعبّر عن عداءه لشخصٍ آخر فإنه لا يمدّ يده إلى مائدته ولا يأكل من طعامه، ولهذا قلق إبراهيم ظناً منه أن ضيوفه لم يتناولون طعامه لهذا السبب، فسألهم عن سبب تصرّفهم هذا، فقال الضيوف له:

Twitter: @ketab_n

- لا نستطيع أن نأكل دون أن ندفع ثمن الطعام. فقال لهم:

- إذاً هاتوا ثمنه. وعندما سأله الضيوف عن ثمن الطعام قال إبراهيم:

- إن أفضل ثمن يُدفع عن هذا الطعام هو أن يقول الضيف بسم الله وهو يمد يده، والحمد لله عندما ينتهي من طعامه. بعد سماع الضيوف جواب إبراهيم أفصحوا عن هوياتهم، فقالوا له:

- لا تخف، نحن الملائكة الذين أُرسلنا إلى قوم لوط.

كان هؤلاء الضيوف الجميلين هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل. وكانوا يحملون لهم خبراً جيداً وآخر سيئاً. شعر إبراهيم بالحزن جرّاء سماعه الخبر السيئ المتعلق بما سيحلّ بقوم لوط بينما فرحت سارة بهذا الخبر:

«وامرأته قائمة تستمع لهم فضحكت من شدة فرحها بخبر هلاك قوم لوط».

نظر إبراهيم إليّ وقال:

- بعد هذا الخبر الذي أضحك سارة بشّرها الملائكة بولادة ولداً ذكر، فدُهشت سارة لما سمعته. فصرخت سارة قائلةً:

- يا ويلتي. وسألتهم كيف سألد وأنا امرأة اقترب عمرها من المائة عام:

- ألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب.

أنا أيضاً بعد سماعي لهذا الخبر البشارة سألت الملائكة وقلت لهم كيف يمكن أن يحدث هذا وأنا شيخٌ عجوز وزوجتي عجوز.

في تلك اللحظة اخضرّت شجرة يابسة كانت بالقرب منا، فقال جبرائيل لي هذه من معجزات الله. وقال الملائكة لسارة:

- أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد.

Twitter: @ketab_n

لا يمكن لأي إنسان أن يكون بحنان إبراهيم ولا برحمته، إنه أبو الرحمة، لقد جذبني وإسماعيل إلى هالة الحنان المنسكبة منه، كنا نستمع إليه مأخوذين بنظرات الحنان التي تشعّ من عينيه.

كان وجه إبراهيم يحمرُ حين يحزن، ومن الواضح أن الألم يعصر قلبه وهو يفكّر بمصير المساكين الذي لم يدخل الإيمان إلى قلبهم. كم كان إبراهيم يحزن أيضاً من أجل أبيه عازار؛ بسبب عدم إيمانه وعناده وسوء طالعه والابتعاد عن ربه، والآن هذا النبي العظيم يحزن وشعر بذات الشعور من أجل قوم ابن أخيه لوط.

قلبٌ رقيقٌ مفعم بالرحمة كقلب إبراهيم لم يحتمل سماع هذا الخبر، إن إبراهيم «حليمٌ أوّاهٌ منيب».

«فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط». ولما ازداد نقاشه مع الملائكة قالوا له:

- يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه جاء أمر ربك وإنه آتيهم عذاب غير مردود.

قال إبراهيمُ وهو متأثرٌ بتجلي الجلال ومبتسم لتجلي الجلال:

- سارة مندهشة بسبب الخبر الذي يتحدث عن ولادتها.

ثم توقّف عن الكلام وهو ينظر إلى عينيّ. فهمتُ ما الذي يريد قوله. من الواضح أنه يفكّر ببقائنا هنا وقد تذكّر حين سألته: «إرادة من هذه» حين تركنا هنا وذهب. وتذكّر أيضاً أنه حين قال لي: «هذه إرادة ربي» كيف انعكس التوكل والتسليم بأمر الله على روحي وإيماني بقدرة الله ونظراتي الخالية من الحيرة وبقائي هنا دون أن أصاب بالدهشة، ولذلك كان كمن يقول لي: «هذا هو الفرق بينك وبينها». كأنه يقول لي:

- الفرق بينكم بنسبة الإيمان، فعند سارة التعجب وعندك السكينة وعندها الدهشة وعندك التسليم.

لقد أسعدني الخبر الذي نقله إبراهيم إليّ، لم أشعر بالانزعاج لأن

Twitter: @ketab_n

المرأة التي طردتني من البيت ستُرزق بولدٍ. ربما يكون إبراهيم قد قرأه على لوح روحي كل هذا، فنظر إليّ بحنان.

يعني هذا أن سارة ستصبح أمّاً، هي أيضاً ستتعرف إلى سرّ الأمومة. فرحتُ لها. فرحتُ وكلّلت فرحي بحمد الله، فرحت لسعادتها وفرحتُ لأن ربي استجاب لدعاء إنسانة مؤمنة. فرحتُ وأنا أرى قدرة ربي الذي بعث ولداً لإمرأة في عامها المائة.. فرحت أيضاً لأن إبراهيم سيصبح أباً من جديد ولأنه سيصبح لإسماعيل أخاً شقيق...

فرحت لأنني عبدة لربٍ كهذا لا حدود أبداً لقدراته...

Twitter: @ketab_n

نقطة انعطاف النفس

أيام عديدة وأنا تحت تأثير الخبر الثاني الذي نقله إبراهيم لي. طغت على عقلي في الأيام الأخيرة النهاية التي تعرّضت لها أشيلا.

أثناء توجّهنا إلى مصر افترق لوط عن عمه إبراهيم حيث كُلّف بهداية أهالي مدن سدوم وغومورا وصنعاء وديدوم، وفي سدوم تزوج من أشيلا وكانت امرأة جميلة وكانت تحب لوط كثيراً، وهو كان يحبها. وكانت ثمرة حبهما عدد من الأطفال الجميلين، ولكن أشيلا بقيت غريبة عن زوجها في موضوع الإيمان.

كان الشعب مسعوراً يمضي لياليه بالسهرات السفيهة ويقلبون نُهُرُهم ليالٍ. ولم تكن تعاليم لوط تجد طريقاً إلى قلوبهم وإلى أنفسهم. وكلما كان لوط يتحدث عن الله مع هذا الشعب المسكين الهارب من الطرق المؤدية إلى الإيمان كانوا يفكرون بطرقٍ جديدة لإزعاجه وفي نهاية المطاف أدخلوا أشيلا إلى الخط. ولكي يزعجوا لوط كانوا يقولون لأشيلا:

- لا تعبّري عن حبّك للوط ولا تنامي معه واجعليه يحترق بنيران حبّك.

وأشيلا كانت تفعل ما يطلبونه منها، ولكن لوط لم يشتعل بنيران حبّها بل توجّه إلى مدن أخرى لكي يواصل تبليغ دعوته.

لم تستطيع أشيلا التخلّص من خلافاتها مع لوط بسبب عنادها ولم يدخل الإيمان إلى قلبها ولم تطع زوجها. ولكن حزن عميق نابع من عدم

Twitter: @ketab_n

تعبيرها عن حبها للوط كان يغزو قلب أشيلا وروحها. عندما رأت لوط لأول مرّة أُعجبت به ومال قلبها إليه فوراً، وهي التي طلبت الزواج منه، ولكن شيء ما كان يقف حائلاً بينها وبين الإيمان، وبالرغم من كل حبّها للوط كان هذا الشيء يُفسد عليها اتحادها مع لوط.

ذات يوم ذهبت أشيلا إلى أمها وهي تشعر بحبّها العارم للوط وبحرقة حسرتها عليه، وراحت تتحدث معها عن الحب الكبير الذي تكنه للوط:

- أمي، أنا أحب زوجي كثيراً ولكنه يجبرني على الاعتراف بربه.

غضبٌ شديد أصاب أمها التي هبّت من المكان الذي كانت نائمة فيه وردّت على ابنتها قائلة:

- إن زوجك يعاني من مرض عقلي. إنه لا يكف عن الحديث عن إلهٍ لا يُرى ولا يُعرف. لا تهتمي لأمره مطلقا، فإن كنت تحبينه ابقي معه طوال النهار وتعالي في الليل لتعيشي حياة اللهو معنا.

عادت أشيلا من عند أمها دون أن تحصل على ما تريد. لم تعرف أشيلا أبداً كنه هذا الشيء الذي دخل بينهما والذي أرخى ستائره ليغطي الحب الكامن بينهما. الشيء الوحيد الذي لم تفعله أشيلا كان قول كلمة «نعم».

هذه الـ «نعم» كانت هي الكلمة الوحيدة التي لا تحبّها آلةُ التحريض على الفتنة في الإنسان والتي يُطلق عليها اسم النفس.

مرّت السنون وهرم لوط، وبدأ الشيب يغزو رأسه ولحيته بسبب الأذى الذي ألحقه به قومه، إذ لم يؤمن به سوى خمسين أو ستين شخصاً. وفي النهاية نفُذ صبر لوط وأدرك أنهم لن يؤمنون فطلب العون من ربّه.

إذا طلب نبيٌ العون من ربّه ألا يرسل له من يمد له يد العون؟ أرسل له ثلاثة من الملائكة. ما أن رأت أشيلا جمال هؤلاء الضيوف الذين قدموا إلى زوجها حتى ذهبت مسرعةً إلى أصدقائها الشواذ لتخبرهم بذلك.

Twitter: @ketab_n

حدث ما حدث ونزل العذاب الإلهي على كافة القوم وعلى زوجة النبي أيضاً. وغادر لوط وأولاده والمؤمنون به بينما بقيت خلفهم أشيلا الجميلة. جاءهم الأمر يقول: «لا تنظروا خلفكم وأنتم تغادرون». فمشى الجميع دون أن ينظروا خلفهم كتعبير عن أنه لم يبقَ هناك من يستحق النظر إليه. وتلاشى جسد أشيلا في عمق مئات الأمتار تحت مدينة ملعونة.

تلقيتُ خبر امرأتين.

خبر سارة التي ستُرزق بولد وستصبح أماً بعد أن وصل عمرها إلى المائة، وخبر هلاك أشيلا. كانت سارة سيدةً تعبد الله وكانت تُطيع رب إبراهيم وتطيع إبراهيم أيضاً، ولهذا السبب تركت كلَّ شيء خلفها وهاجرت معه، وجابت معه الأماكن من ديارٍ لديار، وقد كافأها الله وهي لا تزال في الدنيا. فهل كانت طاعة الزوج هي نقطة انعطاف النفس؟.

وماذا عن أشيلا؟ لا أطاعت ربها ولا أطاعت زوجها. فقد رفضت الإعتراف بالله وأحزنت زوجها. وقد كانت نهايتها في أخر ليلة وصل فيها عصيانها لزوجها وتمردها وخيانتها إلى أبعد مدى، وقد كان وصول جسدها إلى عمق آلاف الأمتار إشارة إلى وصولها إلى أسفل السافلين.

شعرت بالفرح والخوف في آنٍ معاً.

أصابتني قشعريرة وأنا ألجأ من الجلال إلى الجمال.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

صوت النفس

بين الفينة والأخرى كانت تحدث فوضى في ديار النفس، وكانت تحدث تموّجاتٍ في بحرها. لم يكن هناك أية ثقة بالنفس. وفي وقت كان يُقال أنها «صمتت، رضخت، استجابت، تهذّبت» كانت تتمكن من رفع أصوات أقدامها ومن مقاوماتها الدنيوية. نادتني نفسي قائلة:

- يا هاجر، لقد باتت سارة مع زوجك وأنت أصبحتِ لا شيء، أنت امرأة لا قيمة لك.

بدأت مشاعري برفع أصوات التمرد، أم أن هذا له علاقة بتأثير النساء الجُرهميات عليّ؟

قالت إحدى مشاعري:

- أين هو الحق الذي تتحدثين عنه؟ وقالت أخرى:

- أين هي العدالة؟

كنت أعتقد بأنني امرأة مطيعةٌ.

أصغيت لما يدور داخلي.

فكرت بحواء وبزوجة نوح وزوجة لوط.

لقد أطاعت حواء زوجَها، وتعرّضت لاختبارات صعبة، وعاشت ثلاثمائة عاماً من الفراق والوحدة. ثم فكّرت بالجريمة الدموية التي ارتُكبت بين ولديها، وفكرت كيف شهدت أول موتٍ وكيف كابدت ألم موت أحد ولديها، وألم فراقها لولدها القاتل الذي أُرسل إلى المنفى، كما فكّرت بحرقة

Twitter: @ketab_n

قلبها على فقدان ولدها المذنب للآخرة. كم كان صعباً ذاك الاختبار الذي تعرّضت له أمنا حواء. ولكنها كانت أبداً إلى جانب زوجها، كانت معه دائماً. كان أثر طاعة الزوج على روح حواء كتأثير نشوة العبادة.

أما زوجتا لوط ونوح فقد كانتا متمردتين على زوجيهما. لم يقبلاهما، لم يطيعاهما، وكانت النهاية، إحداهما هلكت في الماء والأخرى هلكت تحت التراب. أحسست بأن عدم طاعة الزوج كمن يعصو القدر، لأنه، أليس الأزواج أسبابٌ في الصعوبات التي نعيشها؟

الزوج أيضاً، قدرٌ اختاره الله لنا. وقتها فكّرت في عصياني هذا هل أعصي الذي اختير أم الذي اختار؟ لا أحد منهما.... فأنا راضية على من اختاره الله لي وعلى الذي سببه لي من اختاره لي.

خلال فترة وجيزة تم قمع ذاك التمرد، وعادت مشاعري إلى سابق عهدها وهي تشعر بالخجل جرّاء ما بدر منها.

Twitter: @ketab_n

الأضحية

اليوم الثامن من شهر ذي الحجة. إبراهيم في بكة مشغول بعبادته، كان تعب جسده بادياً في عينيه. جاءه صوت من عالم الرؤيا يقول له:

- يا إبراهيم، إن الله يطلب منك أن تضحي بولدك، قم وضحّي به.

نهض إبراهيم منفعلاً. تكررت الرؤيا ثلاث مرّات، فكّر إبراهيم فيما إذا كانت الرؤيا شيطانية أم رحمانية. تذكر وعده الذي يقول بأنه سيضحّي بولده لله إن رزقه الله بولد. وقتها أيقن بأن هذه الرؤيا هي أمر إلهي.

الشهر ذي الحجة، يوم عرفة..

ناداني إبراهيم قائلاً:

- يا هاجر، حضّري إسماعيل لأننا سنذهب لزيارة صديق.

كان إسماعيل في العاشرة من عمره. زيّنته، سرّحت له شعره ومسحته بالمسك، حضّرته لزيارة صديق.

قال إبراهيم لإسماعيل:

- خذ معك سكيناً وحبل.

وضعتُ بيد إسماعيل سكيناً وحبلاً.

انطلق الأب وابنه من أجل زيارة أحد الأصدقاء. نظرت خلفهما.. أبٌ مبارك خليلٌ لله فلا شك أن يكون له ولد يشعُ النور من وجهه. كم كان يليق بأبيه.. سارا في طريقهما مغادرين بكّة.

كان ينبلج الفجر رويداً رويداً، كان إبراهيم يشق طريقه في التلال

Twitter: @ketab_n

والجبال بصعوبة وحبّات العرق تتدحرج على وجهه النوراني لتبلل لحيته البيضاء. قلبه بين يدي ربه ونظراته على إسماعيل، ويقول: «هو من أعطى وهو الذي يريد». الحنان والعطف يغمر قلبه. يتجسّد رجل أمام إبراهيم ويسأله:

- أيها الرجل العجوز، إلى أين أنت ذاهب؟ فيجيبه إبراهيم:

- لديّ عملٌ وقد جئت إلى هذا الجبل لكي أنجزه. فيقول الرجل:

- لا شك أنك رأيت إبليس في منامك، وقد أمرك بأن تذبح ابنك. وأنت الآن ذاهب لكي تذبح ابنك على هذا الجبل.

يدرك إبراهيم أن محدِّثه هو الشيطان، فيصرخ بوجهه قائلاً:

- اذهب من هنا يا عدو الله، أنا سأنفّذ أمر ربي. فيطرد إبراهيمُ الشيطانَ.

لا يريد أن يكون ألعوبة بيد الشيطان ولا يريد أن يُفرحه، يُسرع بخطواته أكثر وهو يفكر بإسماعيل:

- أيمكن أن يصل إلى إسماعيل؟ فهو لا يزال طفلاً.

وهل يُقدّر الشيطان طفولته، إنها فرصة ذهبية بالنسبة له. إنه زمن لا يُفوّت من أجل دبّ الخلاف بين الأصدقاء ومن أجل زرع بذور الفتنة. يركض بفرح باتجاه إسماعيل ويقول له:

- أيها الولد، أتعلم إلى أين يأخذك والدك؟ فيجيبه إسماعيل:

- إنه يأخذني إلى عند صديقه. فيقول الشيطان:

- كلاّ. لقد أتى بك إلى هنا لكي يذبحك. فيرد إسماعيل عليه:

- ولماذا سيذبحني أبي؟ يقول الشيطان:

- لأن الله أمره بذلك.

يسكب إسماعيل طاعته لله كلاماً ويقول:

- إن كان الله أمره بذلك لن أعترض أبداً.

وبذلك يكون إسماعيل أيضاً قد طرد إبليس.

Twitter: @ketab_n

يحافظ إسماعيل على صمته، يتابع سيره دون أن يقول شيئاً. ولكن الشيطان لا يعرف الكلل، فهو يتنقل من الأب لابنه. وعندما يصلان إلى منطقة المينا يُصرّح إبراهيم لولده عن الصديق الذي سيذهبان لعنده، فيقول له:

- يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. ما هو رأيك في هذه الرؤيا؟ هل ستصبر على ما أمرني الله به أم لا؟

أدّى إبراهيم اختباره، وهو الآن مستعدٌ لأن يُقدّم ابنه أضحية من أجل الله. وها قد جاء الدور في الإختبار على الأضحية. كيف ستكون ردة فعل إسماعيل على أمر الله هذا؟ كيف سيرد على أمر الله؟.

ينظر إسماعيل إلى وجه والده نظرةً ملؤها الحب والاحترام ويقول له:

- يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، ولمّ أسلما وتلَّه للجبين. وعندما اتّفق الأب وابنه على الانقياد لأمر الله سلّم إبراهيم ولده كما سلّم إسماعيل نفسه لله، وصرعه على يمينه فلامس جبين إسماعيل الأرض، وقتها وصل الاثنان إلى السعادة العظمى.

أما أنا فلم يكن لديّ أي علم بما كان يجري، كنت جالسة أمام باب الخيمة أنتظر عودة الأب وابنه. فجأة رأيت شخصاً يأتي نحوي مسرعاً. ثم صرخ قائلاً:

- يا امرأة.. أتعلمين زوجك إلى أين أخذ ولدك إسماعيل؟. فقلت:

- إلى عند أحد أصدقائه. فقال مبدياً ردة فعلٍ عنيفةٍ:

- كلا. لقد أخذه لكي يذبحه. فقلت:

- وهل يذبح الأب ابنه خاصة وأن إبراهيم رجلٌ عطوف ورحيم.

فقال:

- الله أمره بذلك. أسرعي وأنقذي ولدك.

ارتحتُ كثيراً. إن كان الله أمر بذلك فما علينا نحن إلا الطاعة لأمر الله.

Twitter: @ketab_n

علمت من هذا الرجل الذي يقف أمامي. إنه الملعون الذي يعمل لكي يجعلنا نخالف أمر الله. على الفور مسكت حجراً ورميته. إن أراد الله يأخذ الروح التي أعطاها وكلنا مستعدون لنقدّم أنفسنا أضاحٍ له. كان عقلي ونفسي مطمئنّين. أدركت أنني قبضتُ على سرٍّ علم اليقين في الإيمان.

لم يغب طويلاً، عاد من جديد وكرر نفس الكلام، فأمسكت بحجر كبير ورميته على من يحاول أن يفتن بيني وبين الله. الله أعطى وهو من سيأخذ. وأنا راضية على أن أقدّم إسماعيلي له. فأنا مؤتمنة عليه وهو مالكه الأساسي. كان قلبي واثقاً. أدركت أنني وصلت إلى عين اليقين.

ارتحت كثيراً، كانت روحي مليئة بالحمد والشكر لربي. نظرتُ فإذ به قادم من جديد. قال:

- يا هاجر، لقد ألقى به على الأرض لكي يذبحه. أي نوع من الأمهات أنت؟ ألا يوجد حنان لديك؟ اركضي وانقذي ولدك. انظري، من قبل أيضاً أتى إبراهيم بك إلى هنا وألقى بك في هذه الصحراء وحيدة. وهو الآن يذبح ولدك لكي تبقي وحيدة أيضاً. فقلت له:

- هكذا إذاً يا أيها الخائن.. إبراهيم لم يتركني هنا وحيدة بل ربّه من أمره بذلك، إبراهيم لم يفعل شيئاً سوى إطاعة أمر ربه، ونحن بدورنا نطيعه. وطالما أن الله أمر من جديد فما علينا أيضاً إلا الإنقياد لأمره.

ثم التقطت حجراً ورميته بها. كانت روحي مطمئنة، أحسست أنني أبحر في بحر اليقين في الإيمان.

كان الشيطان يركض وحجري تلحق به، صرخت به قائلة: «أيها الحسود».

نظر إلى الخلف ولسان حاله يقول:

- ولماذا؟ قلت:

- لأنك تغار من الإنسان.

لم يستطع أن يفهم لماذا يغار من البشر الذين يحوّلهم إلى لعبة بين

Twitter: @ketab_n

يديه ويجعلّهم يضلّون الطريق ويجرّهم إلى جهنم. شرحتُ له. هناك ميزة موجودة في الإنسان وقد حرمك الله منها. ازداد فضوله فسأل:

- وما هي؟ قلت:

- العشق. أنت لا تعرف العشق ولهذا تغار من البشر. ولهذا تحاول جرّهم إلى جهنم. العشق، خميرة خلق الكائنات. العشقُ، سرّ الله في الإنسان. وأنت لن تدرك وضع إبراهيم لأنك لا تعرف معنى عشق الله، إنه عشق عفيف لدرجة أنه يجعل الإنسان يضحي بولده من أجله.

لم يعد بإمكان الشيطان الاقتراب من عائلتنا أو من نسلنا، أفراد الأسرة جميعهم طردوه.

كان الشيطان متعباً ومنهكاً لدرجة أنني ضحكت لحاله. قلت:

- نحن نعبد الله، هذا صحيح، والملائكة أيضاً تعبد الله، لا بل تتعبّد الله أكثر منّا. فهم لا ينامون مثلنا ولا يأكلون ولا يشربون، يقضون كل أوقاتهم في العبادة. ولكننا مع ذلك نتفوّق عليهم، طبعاً أنت لا تعرف السبب، أنت أيها الشيطان لا تعلم سرّ عبادتنا التي تجعلنا متفوقين عليهم. الملائكة يصلون إلى الله بالعبادة، لكنهم لا يعرفون بتاتاً العبادة التي نقوم بها، الآلام والأوجاع والهموم والدموع... حرقة القلب والعجز والتوجّه إلى ذاك الباب، وقتها يشعر الإنسان بالعجز والفقر، هل يشعر الملائكة بالعجز والفقر؟ هل يملك الملائكة دموعاً يقدمونها لله؟ هل يشعر الملائكة بحب الولد الذي نشعر به تجاه أولادنا؟ هل هناك ملاك يشعر بهذه المحبة التي أكنها لإبراهيم؟ هل يشعرون بحسرتي على إبراهيم وشوقي له؟

هذه الأحاسيس والمشاعر عبارة عن درجات نتسلّقها للوصول إلى ربنا.

نظرت إلى الشيطان، كان مندهشاً. صرخت عليه:

- أيها الملعون، إنك تحاول إقناع البشر بأن العبودية لله ممكنة دون

Twitter: @ketab_n

ألم ودون هموم. أنت دائماً تحاول تعليم البشر العيش دون هم ودون غم، لأنك تحاول أن تسرق منا سرَّ العبودية التي تجعلنا نتفوق على الملائكة.

أنت تجعل البشر يضحّون بحياتهم من أجل الدنيا، ولكن لا أنت ولا أولئك الذي يضحّون بحياتهم وبأولادهم قادرين على فهم تضحية إبراهيم بولده من أجل الله.

لا أحد يفهم الغموض الذي في حياتنا إلاّ أولئك الذين يضحّون بحياتهم من أجل الله.

«إذ قال له ربُه أسلم قال أسلمت لرب العالمين».

الذين لم يصلوا إلى حقيقة التوحيد لن يدركوا سرَّ التسليم.

التسليم أن تؤمن كلُ أحاسيسك بالله وأن تطيعه. إننا كأسرة بأكملها قبضنا على سرِّ التسليم...

الأب أطاع ربه.

الأبن أطاع ربه.

أنا أيضاً، كأمٍ، أطعت ربي.

الشيطان مندهش، الشيطان مذعور.

كلنا قربان لله لكي نتقرّب منه..

Twitter: @ketab_n

أول صلاة ظهر

السمو، هو أحد معاني إسماعيل...

الأب كان يسمو..

الولد كان يسمو...

ينظر إسماعيل إلى ولده.

النور يشعُ من وجهه..

ميمُ الكائنات قربان لله وهي على جبين الجد.

إبراهيم في حالة تسليم، إبراهيم في لحظة طاعة لربه.

طلعت الشمس من خلف التلة فانعكست على وجه إبراهيم النوراني.

إسماعيل ينادي والده ويقول له:

- يا أبي، قيّد يديّ ورجليّ كي لا أتحرك وضع السكين جيداً على رقبتي كي لا أتألّم كثيراً وأنا أسلم الروح. ومن ثمّ جفف قميصي جيداً كي لا تراه أمي فتحزن.

قلب إبراهيم عامرٌ بالدعاء.

شفتا إسماعيل تموجان بالذكر.

الوقت ظهراً..

إبراهيم يمسك السكين بيده، إبراهيم جزّار، جزار قلوب، جزار دنيا. ألقى الدنيا على ظهرها ووضع قلبها أمام سكينه. ينظر إلى السكين للمرة الأخيرة ليعلم فيما إن كانت جادة أم لا، كان الجلال في السكين.. يرفع يده.. هل ترتجف يداه؟.. كلا..

Twitter: @ketab_n

إبراهيم مندهشٌ.

الملائكة يبكون، الملائكة مندهشون.

معجبون بطاعة هذا العبد وبصبر هذا الخليل.

الوقت ظهراً.

مدّ النهار رأسه من خلف التلة. تنظر الشمس بدهشة، الصمت يلف المكان، تجمّد لسان كل الأشياء.

الأضحية ملقاة أمام إبراهيم. النور يشع من جبينها، إسماعيل طفلٌ من نور.

ينظر إبراهيم إلى السكين حيناً وإلى النور الذي يشع من جبينه حيناً آخر.

يعلم بأنه سيذبح نور الكائنات.

إسماعيل في حالة طاعة لربه.

يربط الأب يديه ورجليه.

ينظر إلى النور الساطع على جبينه من جديد.

ينادي إسماعيل ابيه قائلاً:

- أغلق عينيك يا أبي كيلا تستنفر عواطفك.

إسماعيل في ذروة الإيمان.

طار قلب إسماعيل منذ زمن إلى ربه.

يراقب الملائكة ويراقب كلَّ العوالم وهي تراقبه بإعجاب، يراقب رضا ربه في التجلّي الإلهي. ينادي والده الرؤوف:

- يا أبي اذبحني بسرعة كي أصل إلى ربي.

تضغط السكين على عواطف إبراهيم كلها. يذكر إبراهيم ربه ويقول:

- بسم الله. فتردد الملائكة خلفه:

- بسم الله.

السكين على قلب إبراهيم، يقول:

Twitter: @ketab_n

- الله أكبر. فيجيب إسماعيل الأضحية:

- لبيك.

السكّين على مشاعر إبراهيم...

بعض حبّات من العرق في عينيه.. تنزل السكين مسرعة على العنق الطري..

السكين في قلب إبراهيم..

ما الذي يجري، حتى السكين فقدت طاقتها..

تُخاطب السكين:

- لا تذبحي..

هو ذات الأمر الذي أُعطي للنار ذات يوم كي لا تحرق إبراهيم، اليوم يُعطى للسكين التي ستذبح ولده. يتدثّر الجلالُ بالجمالِ.

تطيع السكين الأمر الذي تلقّته..

صوتٌ لاهوتي يحاصر المكان الذي ترصّع بالياقوت:

- الله أكبر، الله أكبر..

يرد إبراهيم بفرحٍ:

- لا إله إلا الله والله أكبر.

عندما سمع إسماعيل تكبير وتوحيد إبراهيم وجبرائيل، يفهم أن بشارة الله قد تجلّت.

فُك قيد إسماعيل عن يديه ورجليه من تلقاء ذاته.

النور يسطع على جبين إسماعيل، ويأتي النداء الإلهي من جديد:

- يا إبراهيم، كيف سنضحّي بإ سماعيل وكل هذا النور يسطع من جبينه.

إبراهيم عند الباب الإلهي..

الملائكة تعيش عيداً..

الكائنات تعيش عيداً..

Twitter: @ketab_n

النداء الإلهي في قلب إبراهيم:

- «يا إبراهيم، قد صدّقتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين».

إبراهيم منتشٍ بإحسان ربه..

جبرائيل منتشٍ لكونه واسطة العون الإلهي...

إسماعيل منتشٍ لأنه ضحى بروحه من أجل ربه...

بجوار إبراهيم كبشٌ، ينظر إسماعيل إلى الكبش وينظر الكبشُ إلى إسماعيل، لم يستطع الكبش تهدئة نفسه لشدة فرحه جرّاء تقديمه كأضحية للمقام الإلهي.

النور يسطع على جبين إسماعيل.

الطفل النور يسأل والده:

- يا أبي، من منا الكريم، أنا أم أنت؟ فقال إبراهيم:

- أنا الكريم يا ولدي. فلقد ضحّيت بولد مثلك لا مثيل له. فقال طفل النور:

- أنا الكريم يا أبتي. فأنا ضحّيت بنفسي. فقال جناب الحق:

- أنا الجواد الكريم، لأنني وهبت لإبراهيم ولده ولإسماعيل روحه. فلقد فديته بكبشٍ.

الوقت ظهراً...

إبراهيم في مقام الدهشة..

في مقام الدهشة يُحمد الله.

يحمد إبراهيمُ اللهَ على أربعة أشياء:

غفران الله له بينما كان يهمّ بذبح ولده.

لأنه لن يفارق ولده.

تقديم الله كبشاً بديلاً عن ولده.

رضا الله عليه وقبول أضحيته.

نادى اللهُ إبراهيم مجدداً على حمده:

Twitter: @ketab_n

- اشكر.

- فيشكر الله بأربعة ركعات عن أربع دهشات.

الوقت ظهراً...

أقام إبراهيم أول صلاة ظهر وفي لحظة تعب وإرهاق من وقت كمال النهار توجّه لله بالشكر ثم يركض نحو بابه متحرراً من ضيقه وهمومه... يرمي إبراهيم كل دنيوياته ويقول:

- ها قد جئتُ إليك. قطعتُ كلَّ حبالي من أجلك في منتصف يوم رمت الدنيا حبالها فيه.

الوقتُ ظهراً. لحظة أن تكون إبراهيم... وقت ذبح إسماعيل...

وقت إلقاء الدنيا على الأرض...

كلُّ المؤمنين به سيقيمون وقت الظهر كما أقامه إبراهيم. من الآن فصاعداً ستكون إقامة صلاة الظهر بمعنى أنني «ضحّيت بإسماعيل».

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

بناء الكعبة

قارب عمر إبراهيم المائة عام وأما إسماعيل فقد كان في الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمره. كبُر واقترب من سن المراهقة. ذات يوم زارنا إبراهيم فلقد أمر اللهُ إبراهيم ببناء الكعبة.

«وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود».

قال إبراهيم لإسماعيل:

- يا بني إن الله يطلب منّا أن نبني البيت المقدّس.

كان إسماعيل يطيع والده على الدوام، جسّد طاعته كلاماً بقوله:

- حاضر يا والدي.

كان هذا البيت المقدّس في السابق البيت المعمور الذي تمّ إنزاله من الجنّة عندما نزل آدم من الجنة إلى الدنيا، ووُضع في المكان الذي توجد فيه الكعبة وكان له بابان مصنوعان من الياقوت أحدهما يتّجه نحو الشرق والآخر نحو الغرب. وكان أبونا آدم يأتي مرتين في العام من جزيرة سرنديب إلى هنا، حيث يزور البيت المعمور ويُقيم عبادته فيه. وأثناء طوفان نوح تمّت إقامة البيت المعمور في ذات المكان من جديد. هكذا كان يُروى.

اقتضت إرادة الله أن يُبنى بيتٌ في مكان البيت المعمور الذي بات خالياً. ولكنهم لم يكونوا يعرفون أين سيبنون هذا البيت. حال وصولنا إلى

Twitter: @ketab_n

هنا هبّت رياح سكينة أراحت أرواحنا. ذهب الأب وابنه صوب اتجاه هبوب الرياح فتوقّفت الرياح، وقتها فهما بأنه في هذا المكان سيُقام البيت. في تلك اللحظة نزل جبرائيل وحدّد مكان البيت.

بدأ الأب وابنه العمل. لم يستخدما الطين في البناء. قال الله لإبراهيم أن يبني البيت من حجارة من خمسة جبال، الطور، الزير، لبنان، الحيرة والحيودي.

كان إسماعيل يحضر الحجارة وإبراهيم يبني.

وكان الأب وابنه مستمرين بالدعاء وهما يبنيان البيت أمضيا كل لحظة وهما يذكران الله ويبتهلان لربهما كي ينالا رضاه:

- «ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم.»

تم بناء الجدران بالأحجار التي وُضعت فوق بعضها بعضاً. كان ارتفاعه تسعة أذرع وعتبة بابه بمستوى الأرض وفوقه مكشوف، بُقي فراغ بحجم ستسع لحجر واحد في الزاوية الأساسية للجدار. قال إبراهيم لإسماعيل:

- يا بني اجلب لنا حجراً بحجم يغلق هذا الفراغ.

ذهب إسماعيل للبحث عن حجرٍ وعندما عاد وجد الفراغ قد امتلأ بحجرٍ آخر فسأل والده من أين أتيت بهذا الحجر؟. فقال إبراهيم:

- هذه الحجر أحضرها جبرائيل من جبل قبيس.

ومع وضع الحجر الأسود كان بناء الكعبة قد اكتمل.

- «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم».

بعد ذلك أمر اللهُ إبراهيم بقوله:

- يا إبراهيم، «طهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود» «وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق».

Twitter: @ketab_n

أصيب إبراهيم بالدهشة، فلمن سينادي والمكان حوله خالٍ من الناس فقال بدهشة:

- وعلى من سأنادي فعلى هذا الجبل لا يوجد بشر؟. فقال جبرائيل لإبراهيم:

- أنت عليك أن تنادي وجناب الحق يُسمع صوتك لمن يريد. فاستجاب إبراهيم لأمر ربه وصعد إلى قمة الجبل وراح ينادي في الجهات الأربع:

- أيها الناس، لقد بنى الله تعالى لكم بيتاً ويدعوكم لأن تحجوا إلى هذا البيت. تعالوا لزيارة بيت الله.

لم يتأخر رجع صدى صوت إبراهيم بالرد، فقد جاء الجواب:

- لبّيك اللهم لبيك.

ما هذا؟ كلّث الصحاري والجبال والتلال وكلّ ذرة في الكون صارت تردُ عليه، كأن جميع الكائنات صارت تردد:

- لبّيك اللهم لبيك.

أوصل الله كلامه إلى كل الناس وأسمع نداء إبراهيم إلى كل الأرواح، فجاءت الأرواح، التي قبلت هذا النداء، من عالم الأروح وردّت عليه:

- لبّيك اللهم لبيك.

كل الأرواح التي قبلت هذا النداء ستزور هذه البلدة على الأقل مرّة واحدة في حياتها. وأما الأرواح التي سمعت صوت إبراهيم ولم تقبله فلن تزور هذا المكان أبداً. كل إنسان سيأتي إلى هنا سيحل ضيفاً على إبراهيم.

كان المُضيف هو إبراهيم.

كانت الكعبة هي إبراهيم.

كانت الكعبة هي هاجر.

كانت الكعبة تمثّل شيئان:

التوحيد والعشق.

Twitter: @ketab_n

بنى إبراهيم الكعبة لكي تمثّل التوحيد، وعشقي صار طوافاً. صار المنجذبون إلى العشق يدورون حول الكعبة.

كانت الكعبةُ قلباً وكانت بيت الله والعشق هو مفتاح هذا البيت. أنشئ قلبي ككعبة في جسدي، ولن يصل إلى سرٍّ الكعبة إلاَّ الذين سيحصلون من قصتي ومن حياتي ومن قلبي على سرّ هذا المفتاح.

Twitter: @ketab_n

شكرتُ ربي...

كنت تحت ظل العرش. عندما جئتُ إلى هنا لم يكن ثمة شيء في هذا المكان سوى ظلي. طفتُ هنا وسجدتُ لربي، نظرت إلى الكعبة وشكرته..

عندما انتهى بناء الكعبة كافئ الله الأب وابنه بأن أعطاهما حصاناً. لم يكن الحصان برّياً. بعد ذلك أوحى الله لإسماعيل بأن ينادي على الخيول فنادى إسماعيل على الخيول فجاءت إليه كل الخيول الموجودة في بلاد العرب وتجمّعت حول إبراهيم، ثم سخّر الله كل الخيول لخدمة إسماعيل. وهكذا صار الناس يمتطون ظهور الخيول. فكّرت بالمطايا المادية والمعنوية التي أعطانا الله إياها.. وشكرت ربي.

صرت في الأيام الأخيرة أتذكّر باستمرار قصة حياتي منذ الطفولة. أعتقد أنني وصلت إلى النهاية. ما رأيته وأنا أنظر إلى الوراء عبارة عن حياة لم يكن للفراغ مكان فيها، آلام كثيرة لامست قلبي..

تباركت أيامي بقطرات الحزن المتساقطة على روحي و عرفت حياتي المعنوية نشوة النعمة. لقد صدّعت تلك القطرات غلاف قلبي وأخرجت من داخله نواة الآدمية.. وصلت إلى الرحمة. الضيق الذي نشعر به في حياتنا هو قطرة الرحمة التي توصل الإنسان إلى الرحمة.. تذكّرت عذابات حياتنا التي أوصلتنا إلى الرحمة و..

شكرتُ ربي..

Twitter: @ketab_n

فكّرت بعذاباتي في هذه الحياة، عذاباً عذاباً، استرجعت بذاكرتي كلّ ما عشته، لحظة بلحظة، استعدت لحظات حياتي التي لم تمرّ فارغة. من أجل أناي المجبولة بالألم، على نفسي التي نضجت بالصائب، على عذاباتي التي أوصلت عباداتي إلى الكمال، على حياتي التي أبقت كل لحظاتها في حضرة الله..

شكرت ربي...

الرحمن الرحيم الذي استقبلني في حضنه كطفل صغير أثناء شعوري بالضيق فابتهلت بالنعم الإلهية.. الذي كان يهزّني وأنا في مهد الدنيا أحياناً بالضيق وأحياناً يغمرني برحمته ولكنه في كلتا الحالتين كان يبقيني في قبضته وفي حضرته.. لكل هذا..

شكرتُ ربي...

كان الذكر على لساني والحمد في قلبي، وكانت روحي على باب الذات، لأنني كنت بوّاباً على بابه ولأنني لم أفارق بابه ولأنني لم ألوّث روحي بأدران التمرّد، ولأنني لم أعترض أيّ مرّة في حياتي...

شكرت ربي...

أمضيت كلّ لحظة من حياتي كمن يحل خيوط بكرة من المحن. ليس هناك أي ألم أو عذاب دون سبب، لحظات الضيق التي عشتها هي الفترات التي استمتعت بها من حياتي والتي امتدّت إلى اللا نهاية.. إنها الفترات الأكثر نضجاً والأكثر طهارة والأكثر قرباً من قلبي. كانت كل لحظة من حياتي مليئة بالعذاب، ولكنها مرّت كلها معه، كانت عبارة عن عبادة مقامة معه.. لأنني لم أمضي أي لحظة من دونه...

شكرت ربي...

فكّرت بسبب معاناة الإنسان، هل الأحداث هي التي تُحزن الإنسان؟ هل للأحداث مزايا كهذه، أم أن إدراكنا للأحداث هو الذي يجعلنا نحوّلها إلى عذاب؟ يجب أن يكون هناك نهاية لها. نحن الذين نستجلب الألم ثم

Twitter: @ketab_n

ننظر إلى الأحداث على أنها مذنبة. في الحقيقة الأحداث لا تصل إلى أرواحنا وقلوبنا، الأحداث تصل إلى أنفسنا فقط. فالقلب والروح متّصلان بالله وأما النفس فمتّصلة بالأحداث. وإذا كان الأمر كذلك تكون الأحداث مجرّد مقياسٍ إنها مقياس النفس والأنا في الإنسان. فكلما كانت الأنا لدينا قوية وكلما كنا مرتبطين بالنفس كلما بقينا تحت ضغط الأحداث وكلما شعرنا بالحزن والألم أكثر. الألم الذي نشعر به حيال الأحداث يعطينا مقياس ودرجة وجودنا تحت حكم النفس والأنا. لأنه جعلنا على معرفةٍ بمشاعري وعواطفي وأعطاني القدرة على الانتقال من ظاهر الأحداث إلى باطنها..

شكرتُ ربي...

لأنني لست ملاكاً ولأنني أمثّل جوهر العالم، الإنسان الذي فاق الملائكة ولأنني عبداً لديّ القدرة على الشكر...

شكرتُ ربي...

لأنني أدركت أنه ليس ثمة نهاية للشكرِ ولأن لديّ النية لأن أُقدّم الشكر اللا نهائي...

شكرتُ ربي...

نظرت فرأيت إسماعيل إلى جواري، عدتُ بذكرياتي إلى الوراء بحبٍ لأنني رأيت إبراهيم فيه مرةً أخرى. هبّت رياح حسرة لذيذةٍ من قلبي إلى روحي، شكرتُ ربي الذي ألهم روحي مشاعر الحب والحسرة وتوّجهت إلى من لا يغرب أبداً...

وبينما أشكر ربي الذي جعلني أدرك معنى الفناء تحرّكت شفتاي بكلمات إبراهيم:

لا أحب الآفلين. أنا لا أحب الذين يغربون...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

سِرُّ العشق

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

مسير العشق

أحنُّ إلى إبراهيم...

إذن هذه هي الحسرة، احتراق وحزن واكتئاب في القلب وحزنٌ غريب في الروح، الحسرةُ حالة لاذعة للروح..

لم يكن إبراهيم يأتي كثيراً إلاّ في أحلام فؤاد عالم وحدتي، وكانت الوحدة قد أصابت مشاعري، أخفينا مشاعرنا في قفص الجسد. ربما كان ربي يجعلنا نقبض على المحبة الحقيقية، إن أصل المحبة حُرمة.

العشق باطن...

العشق سر...

العشق إخفاء...

العشق تجنّب.. أن تُبقي محبوبك بعيداً عن الأعين وعن المشاعر وعموماً أن تبقيه بعيداً عن الموجودات.

العشق خجل.. لا يمكن أن يلجأ العشق إلى قلب من لا يخجل.. عندما تمرّ المحبة من النفس تتستّر بستار الحياء وتصل إلى سرِّ العشق.

كان إبراهيم يرتطم دائماً بساحل خيالي مع سارة، كم كنت أتمنى أن أفكر به دون أن تكون معه ولكنني لم أنجح. إنه الآن بجانب سارة. لقد جرى التقاسم، إبراهيم بقي مع سارة وإسماعيل معي. فجأة ضربت الصواعق عالمي الداخلي، تدفّقت الغيرة كتيار حارقٍ من كافة أوردتي إلى مشاعري

Twitter: @ketab_n

بسرعة كبيرة. شعرت وكأن خيال سارة يسخر مني، جلست، كانت كلها مشاعر نساء، حسناً ولكن ما هو أصلها؟

إبراهيم كان زوجاً وإسماعيل طفلاً. أحدهما زوجي والأخر ولدي، ما هي حصتي أنا؟ الطفل...

الزوج يقابل حب النفس...

الطفل ثمرة القلب، القلب بُعدُ الحب. إذاً كان نصيب سارة حبّ النفس وأما نصيبي فحب القلب.

كان يتوجب عليّ أن أمرّ على مشاعري كرياحٍ مؤلمة وأطرد رياح الغيرة التي تخرّب بذور الكمال.. الغيرة، سلاح النفس. سلاحٌ لا يطلق نيرانه نحو الآخر بل يرتدّ إلى داخل صاحبه، سلاحٌ لا يقتل الخصم بل يقتل صاحبه.

أدركتُ في ذاتي سرّ هذا التقاسم الذي جرى خارج ذاتي. فُتحت أمام سارة ساحة الجسد وأما أمامي فقد فُتحت ساحة القلب. أوليست ساحة القلب هي ساحة العشق؟.

ما الذي قاله المتحدّثون عن أن العشق سرٌ عظيم، حول كيمياء العشق: العشق عريشٌ، والعريش لا يُظهر من المكان الذي عرّش عليه سوى ذاته. في القلب الذي يوجد فيه العشق لا يمكن رؤية أي شيء آخر سواه.

العشقُ رمي الأنا، وما هو معنى وجود العشق في قلبٍ تغزوه الأنا.

العشقٌ، أنت تستطيع أن تقول «هو».

العشقُ أن ترا «ه» في كل مكان وفي كل شيء.

العشقٌ، يعني الدخول في جسم وفي اسم المكان الذي يوجد فيه الحبيب.

أدركت السرّ في مسيرتي، العشقُ سيرٌ، إنه سيرُ القلب.

كان عليّ أن أسير خطوة... على طريق القلب الذي هو اللا مكان الذي لا حدود له...

Twitter: @ketab_n

هل القلب من يُحب أم الجسد؟

نظرتي إلى بشرتي السمراء التي لا بريق لها. لقد ذبُل بريقها. جفّ ماؤه، كأنه تراب تشقق بخطوط تفصل أجزاءه عن بعضها، شبّهت نفسي بشجرة جفّت أوراقها وأغصانها وانسلخت عنها. قلت:

- إبراهيم اختار الجميلة، بقي مع الجميلة.

أصبُت بألم في أعماقي، نظرت إلى خيال إبراهيم وصرخت بنظرة مقهورة من عينيّ السوداوتين:

- أنت أحببت الجميلة. ثم نظرتُ بعينين توجّهان التهمة إلى بشرتي السمراء التي اعتقدتُ أنها السبب في عدم إعجابه بي.

هل يمكن للقلب أن يصل إلى البشرة؟

من الذي يجعل القلب يحب من يحبهم؟ هل القلب هو الذي يحب أم أن صاحبه يجعله يحب؟

هل لعبت بشرة سارة الشقراء دوراً في محبة إبراهيم لها؟

من الواضح أن نفسي تجري مقارنة بموضوع الجمال الذي همّشني وأبعدني وجعلني امرأة غير مرغوبة. قالت نفسي:

- القلب يُحب الجمال. وقالت:

- قلب الرجل يشعر بالمحبة تجاه المرأة الجميلة.

كانت نفسي تقول كل شيء. فكّرت بمن أحبهم.

كنت أحب إسماعيل.

Twitter: @ketab_n

هل كان لجماله أو لقباحته أثر في حبّي له؟. إن كان الأمر كذلك فهل أنا الذي كنت أحب إبراهيم أم أن شيء ما هو الذي جعلني أحبه؟

أحدٌ ما هو الذي وضع في قلبي حب ولدي قبل أن يولد..

يجب أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للزوج أيضاً، أحدٌ ما هو الذي وضع في قلبه حب زوجته، صاحب البشرات هو من أرسل له هذا الحب، جعله يُعجب بالبشرة التي خلقها. قلتُ:

- إن كان الأمر كذلك، لماذا يُحب الرجالُ المرأة الأجمل؟ صوت آخر من داخلي قال:

- العاجزون عن إيصال القلب إلى حالة الحب يحبّون الجسد. الحب الجسماني يكون في الجسد. المحبة، التي هي انعكاس لاسم الودود، موجودة في القلب. عندما تصل رِجلُ المحبة إلى القلب وقتها يجعلك الله تُحب. المحبة التي لا تصل إلى القلب تنقلب إلى عذاب لأنها انفصلت عن اسم الودود، تُصبح كالمجانين، لا تصل إلى أي شيء. لا تحافظ على نفسها، تأفل وتموت. تعيش حالة ارتجاف وهي تبحث عن الحبيب والمحبوب.

قال صوت آخر من داخلي:

- هل صدّقتِ بأنه لا أهمية لجمال البشرة في إبعادك من قبل إبراهيم؟ برأيي لا تصدّقي فسارة امرأة جميلة.

فهمتُ..

المتحدّث هو الشيطان..

حضّرت الجواب فوراً:

- إبراهيم لا يحب حسب لون البشرة والجسم. أيمكن أن يتوقّف حب نبي عند موضوع الجسد؟ هو لم يبعدني عنه ويُحضرني إلى هذا المكان، ربّه هو من أرسلني.

انزعج الشيطان كثيراً لأنه لم يستطع خداعي، علماً بأنه خدع قبلي آلاف النساء. كم فرّق بين النساء وأزواجهن..

Twitter: @ketab_n

ضحكت على الشيطان، لامست بشرتي السمراء بيدي الجافتين ومررتهما من الأعلى إلى الأسفل.

رددت كلمات الحمد وراء بعضهما وشكرتُ ربي لأنه لم يجعلني ألعوبة بيد الشيطان.

تذكّرت إبراهيم مجدداً ورياح الفراق تهب من قلبي، صوت آخر خرج من داخلي كأنه يُعيب عليّ أفكاري هذه وقال:

- يا هاجر، لازلتِ تبحثين عن الحب في لون البشرة، لا يمكن الوصول إلى المحبة.. لا يمكن الوصول إلى العشق قبل التخلّص من البشرة والجسد. وهل يحبّنا الله على لون بشرتنا؟ إن كان هو لا يحبّنا من أجل هذا الأمر فكيف يحبّب عبيده بعضهم ببعض حسب لون بشرتهم. إن البحث عن المحبّة في المكان الغلط يُحرم الإنسان منها. ليكن بعلمك، لا يمكن الوصول إلى المحبة قبل التخلّص من موضوع الجسد ولون البشرة.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الوجوه الثلاثة
والوجه الداخلي للعشق

علمت أن للحب ثلاث وجوه، العشق دوامة خفية موجودة في الإنسان، إما أن تجذبك إليها وتُغرقك أو ترفعك إلى الأعلى وتسمو بك. الغرقى هم الذين لا يعرفون ماهية العشق. قسّمت الوجه الداخلي للعشق إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول هو عشق النفس. الدوّامة موجودة هنا، حالات الغرق تحصل هنا .. كان يُعتقد بأن حبّ الجسد هو العشق. يعبّر عن ذاته في البحث عن الجنس الآخر ولا يصل إلى الشبع، لا يصل إلى السعادة أبداً، وكلما اقتربت منه على أنه عشق وكلما تمسّكت به على أنه عشق كلما ازددت غرقاً في دوّامته.

ألا يوجد أي معنى لما يشعر به الإنسان هنا؟ طبعاً يوجد، فهنا توجد الدرجة الأولى من العشق فقط، ولكنه ليس العشق بذاته، فالعشق شاسع لدرجة أن العالم بكامله لا يتّسع له. في هذه الدرجة يشعر الإنسان بالدرجة الأولى من العشق ويقترب الجسد من حدود عشق القلب. وقتها يدرك الإنسان حجم هذا الاتساع فيفهم بأن هذا ليس الشيء الذي يبحث عنه، ويبدأ بإزعاج الإنسان وهو يقول له «ليس هذا هو ما أبحث عنه».

هنا تبدأ الدوامة بالعمل، فإما أن يُصغي الإنسان لصوت القلب ويتبع وقع أقدامه ويجتاز الدرجة الأولى للعشق، ويتخلص من قسم المجاز، أو يبقى فيه ويعيش حالة ضيق مستمرة.

Twitter: @ketab_n

الوجه الثاني هو عشق القلب، يتم الانتقال خطوة من عالم المجاز إلى عالم الواقع، هنا تنفتح الدنيا أمامك ويتم تجاوز المادة. ولكن لهذا العشق بعده المادي.. يسعى في طلب الجنة.

الوجه الثالث للعشق هو المقام الذي يتم فيه تجاوز المادة، درجة عشق الروح، في مقام العشق هذا لا يعرف أحداً سوى الله، ويصل العشق في هذا الوجه إلى سر العشق.

وماذا عن باقي أنواع العشق؟

إنها ساحات شعور الإنسان بالألم لأنه لا يستطيع الوصول إليها.

الباقون في الوجه الأول يقاسون العذاب، اسمه عشق ولكن نتائجه، دائماً، عذاب. إن الله يسبب الضيق للعاشق في هذا الوجه لكي يتجاوز المجاز.

لا وجود للضيق في الوجهين الآخرين، العشق الحقيقي هو الوصول إلى الوجه الثالث.

Twitter: @ketab_n

سبعة حواجز في مسيرة العشق

مسيرة العشق هي مغامرة طريقٍ للانتقال من النفس إلى بلد القلب. وهذا الطريق مليء بالحواجز.

الحاجز الأول هو الشهوة:

لا يوجد العشق في المحبة الناجمة عن الشهوة، ولا يمكن القبض على سر العشق. الشهوة تطلب لون البشرة وأما العشق فيطلب الروح.

الحاجز الثاني هو الحسد:

لا يمكن للشخص الحاسد أن يقبض على سر العشق، الحسد هو إنكار لعطي النعمة، الحسد يعني عدم قبول تقاسم القلب. الحسد هو بخل القلب.

الحاجز الثالث هو حب الدنيا:

محبّ الدنيا لا يمكنه التخلي عنها، وفي العشق يوجد تخلي ويوجد أيضاً تضحية. محبُ الدنيا لا يمكنه حب الإنسان، تبقى محبّته محصورة بالمادة.

الحاجز الرابع هو الرياء:

لا يمكن للساعين وراء رضاً ومحبة شخص غير الله الوصول إلى حدود أسرار دولة العشق، ولا يمكنهم الهجرة إلى ديار القلب.

الحاجز الخامس هو الحقد:

لا يمكن للقلب الحاقد أن يلتقي مع الله، لا يمكن للقلب الحاقد أن

Twitter: @ketab_n

يقبض على العشق ولا حتى على المحبة. القلب الحاقد يعني انقطاع التواصل مع الله، فالله لا ينظر إلى القلب الحاقد. هنا لا يوجد ارتباط بالأسماء والقلب الذي لا ينفتح على الأسماء لا يمكنه الوصول إلى خميرة العشق.

الحاجز السادس الغرور:

لا يمكن للمعجب بنفسه والذي يرى نفسه كبيرة أن يُعجب بأحدٍ آخر. إن كانت طاقة الحب متوجّهة نحو الأنا لن تسمح بانتقال المحبة إلى مرحلة العشق.

الحاجز السابع الكلام:

الكلام الكثير يؤدي إلى الكلام الفارغ، والكلام الفارغ غالباً له علاقة بالنميمة. العشقُ صمتٌ، لا نميمة في العشق. الكلام الكثير يقتل القلب ويُحيي اللسان.

العشق هو كلام القلب.

Twitter: @ketab_n

العشقُ هو ركضُ النفسِ

كان العشق دائماً كطائر العنقاء. عدد لا يُحصى من طيور القلب في جبل القاف تخفق بغية الوصول إليه. بعضها علِق في الشراك ظناً منها بأنها عشقاً وبعضها الآخر ذهب في دروبٍ مجهولةٍ ظناً منها بأنها هي العشق بذاته.

كان الذهاب إلى العشق مداراً داخل الإنسان، وركضي كان الشفرة الأولى لهذا الوصول، ركضتُ سبع مرّاتٍ، كان السبعة هو عددي الباطني، فكّرت بسر العدد سبعة الذي في داخلي، كلُ سلوك خارجي هو انعكاس لشفرةٍ في عالمي الداخلي، بتُ أسمع صوتاً قادماً من أعماق قلبي، كأن أحد ما يقول:

- ستركضين يا هاجر في مراتب سبع أنفس.، وستصلين إلى العشق عند الوصول إلى النفس السابعة.

كلٌ مرحلة من مراحل النفس عبارة عن شركٍ للعشق، النفس الأمّارة هي الشرك المجازي، أدركت أنني لم أقع في هذه الشراك، لم يكن لديّ ميلاً للوقوع بالخطأ، إن هروبي من الخطأ بحجم هروبي من الشيطان. تمتمات الشكر انسكبت على شفتيً.

صوتٌ آخر جاء من داخلي، قال:

- ما هو ركض النفس الثانية؟ أتذكرين عندما لم تحتملي سارة وهربتِ من البيت ومن ثم ندمتِ وعدتِ ثانية. هذه هي النفس الثانية وهي

Twitter: @ketab_n

النفس اللوّامة التي تعني الندم بعد الوقوع في الخطأ. ثم جاء صوتٌ ثالث ليقول:

- أتذكرين عندما أتيت إلى هنا وسيطر عليك شعور الخوف بسبب الوحدة، ثم جاءكِ إلهام من ربِّك يقول لك «لا تخافي ولا تحزني» وقتها كان ركضك في مرتبة النفس الملهمة.

وقتها أدركت أن النفس الملهمة هي مصدر الإلهام. فسألت الصوت الذي في داخلي قائلةً:

- وماذا عن النفس المطمئنّة؟ جاء صوت آخر من داخلي يقول:

- أتذكرين عندما سألتِ إبراهيم عندما تركك هنا وهمّ بالذهاب، وقلتي له: «إرادة من هذه؟» فقال لك: «هذه إرادة ربي» فرددتِ عليه من مرتبة النفس المطمئنّة وقلت: «إن الله لن يضيّعنا».

- وماذا عن النفس الصافية؟

- النفس الصافية؟ قال شعورٌ من داخلي. أتذكرين حين تركك إبراهيم ورحت تركضين من هنا إلى هناك بحثاً عن الماء لولدك. وصلتِ حينها إلى سرِّ العجز والضعف، ومن خلال فقرك أدركتِ عبوديتك. وقتئذٍ وصلتِ إلى النقاء فوضعتِ ولدك على الرمل وبكيتِ على باب ربّك بلا اعتراض ولا تمرد، فاغتسلتِ بدموعك فقدّم الله لكِ ماء زمزم. وقتها وصلتِ إلى النفس الصافية.

- وماذا عن النفس الراضية والمرضية؟.

- عندما رضيتِ بما قدّمه هو أيضاً رضي عنك. أتذكرين عندما ذهب إبراهيم إلى الجبل ليُضحي بإسماعيل وجاءك الشيطان يركض ليقول لك: «يا هاجر، إبراهيم الآن يذبح ولدك» فقلت له: «أيمكن لأبٍ أن يذبح ولده؟» فرد عليك قائلاً: «إن الله طلب منه ذلك» فرميت الشيطان بالحجارة وقلت له: «إن كان الله قد طلب ذلك فما الذي نستطيعُ فعله؟». وقتها رضي اللهُ عنك، وعشت ساعتئذٍ في مرتبة النفس الراضية والمرضيّة.

Twitter: @ketab_n

أدركت مراتب النفس من خلال الأحداث التي عشتها، فكل حادثة كانت عبارة عن درجة أو حاجز في سلّم الارتقاء إلى مراتب النفس.

كما كنت أركض بين الصفا والمروة كنت أيضاً أركض من نفسٍ إلى نفس، من الأمارة إلى اللوامة ومن اللوامة إلى الملهمة.. كل حادثة كانت خطوة في ركضي.

براحة نفسٍ راضية بسطتُ فرائي على ساحات النفس على أملِ أن لا أتحرك من هنا.. حتى الوصول إلى عبارة: «عودي أيتها النفس الراضية من ربّك».

أدركت وقتها معنى العشق، إنه العبور في مراتب النفس السبعة. وعندما تكتمل النفس السابعة تتشكّل عاطفة في القلب تُسمى العشق. وعندما يسيطر القلب على كل جنوده ويبسط سلطانه، يكون العشق... فَرَحُ الروح بدخول كل المشاعر في إمرة الرب هذا هو العشق...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

حكاية العشق

«العشق هو أن تُقدّم الحلوى التي بيدك للآخرين وأن تبتلع السمّ».

عندما حان وقت موت خليل الله لم يُسلّم الروح لعزرائيل بسهولة. قال له:

- اذهب من هنا، قل للسلطان: لا تطلب الروح من إبراهيم. فقال الله تعالى لإبراهيم:

- إن كنت خليلي فعليك أن تضحّي بروحك لخليلك.

علماً بأنه كان يتوجّب أخذ الروح منه بالسيف.

ولكن من يبخل بروحه على صديقه؟ قال أحدهم:

- يا منير العالم، لماذا لا تُسلّم الروح لعزرائل؟ العشّاق يلعبون في الدروب بأرواحهم ورؤوسهم، فلماذن أنت تراقب روحك. فقال إبراهيم:

- منذ قليل كنت سأسلم الروح ولكن عزرائيل تدخّل. علماً بأنني وأنا أُلقى في النار جاءني جبرائيل وقال لي:

- يا أيها الخليل، اطلب مني أية مساعدة. يومها لم أنظر حتى إلى جبرائيل، لأنه كان يقطع عليّ الطريق، كان يمنعني من ملاقاة الله.

إن كنت لم أرضخ لجبرائيل كيف لي أن أُسلّم الروح لعزرائيل؟ لن

Twitter: @ketab_n

أُسلّم روحي ما لم أسمع صوت الله وهو يقول لي: «ضحّي بروحك» ولكن إن أمرني بتسليم روحي فإن كامل روحي وقتها لن تساوي عندي نصف حبة شعير.

إن لم أؤمر لن أسلّم روحي في العالَمين لأي أحد آخر.

من كتاب «منطق الطير»

Twitter: @ketab_n

الصدَقة في العشق

العشق كان في إبراهيم.. العاشق كان إبراهيم.

لم يُدخل إبراهيم أحداً بينه وبين عشقه، حتى أنه أبعد ولده عنه، وأبعدني أنا أيضاً. أخرج الجميع من عشقه، حتى جبرائيل وعزرائيل...

أوحى الله لإبراهيم قائلاً:

«من المؤكد أنك خليلي وأنا أيضاً خليلك، فحذارِ أن أراه مع أحداً غيري عندما أكون مطّلعاً عليه، وإلاّ فإنني سأقطع مجبتك التي تكنّها لي. لأنني حين أختار أحداً لمحبتي فإنني أختاره بحيث حتى وإن أحرقته بالنار لن يلتفت قلبه لأحدٍ سواي ولا ينشغل بأحدٍ سواي.. ولأن قلبه كذلك فقد وضعت محبتي فيه ولم أقطع عنه لطفي وكرمي، حتى أنني جعلته قريباً مني على الدوام، لقد وهبته محبّتي».

تعلمت العشق من إبراهيم. العشق يعني أن تنظر إلى القلب ولا تجد فيه سوى الحبيب. أخرجنا الجميع، رمينا كل انواع الحب التي من شأنها أن تشكّل ستارة تخفي من خلالها حب القلب. لم نلتقِ أنا وإبراهيم ولم نتكلّم مع بعضنا إلاّ عدة مرّات فقط. اللقاء والكلام فقط من أجل الذين لم يقبضوا على سرّ العشق. أما بالنسبة للواصلين إلى العشق فإنهم يخرجون من أبعاد الوجود، فكلام اللسان لا يكفي للحديث في العشق وجسد الوجود لا يكفي للرؤية في العشق.

في الظاهر كانت هذه إرادة سارة ولكن في الحقيقة علّمنا الله سرّ

Twitter: @ketab_n

الوصول إلى العشق الحقيقي. اتّهمت سارة من قبل الذين لا يعرفون هذا السر على أنها امرأة غيورة وظالمة. ربما يكون حقيقة هذا في سر الأزل أن تدفع سارة ثمن هذا الخطأ حتى يوم القيامة من خلال القيل والقال.

كان العشق عنده. فهو الذي كان يزرع العشق في القلوب ويحول المحبة إلى عشق. ولم يكن ينقّط هذه الكيمياء في قلوب الذين لا يمتلكون طاقة العشق والذين لا يليقون به. الحقيقة ألاّ تقول: «عشقتُ» بل أن تقول: «الله عشّقني». فالله هو الذي أحسن إلى إبراهيم وإليّ بالعشق، ففي قلبي كلينا لم يبق أية رابطة بغير الله ولا أي ميلٍ لغير الله. قذارة الحب الدنيوي يوسّخ كيمياء العشق.

رميتُ كلَّ قذارات العالم وقبضتُ على العشق. وصلت روحي إلى سرٍّ العشق. تجاوزت زوجي وولدي، كنت امرأة وحيدة، روحها في مرتبة العشق، مددت رأسي إلى الأبد في بحر التوحيد. بقيتُ وحيدة في بكّة وأما سارة فكانت لها الدنيا مع زوجها. قبرا سارة وإبراهيم إلى جانب بعضهما البعض وأما أنا فقد ضمّت الكعبةُ وحدتي وغربتي. أنا المرأة الوحيدة الممددة في الكعبة. لقد أزال الله وحدتي لدرجة أنه في كل لحظة يدور حولي آلاف البشر كما المروحة.

اختارت الكعبة، مثلي، اللون الأسود. فلقد تلوّن الحجر الأسود باللون الأسود مثلي. كلُّ شيءٍ في بكة يشبهني.

أنا من علّم تعاليم عشق نبيٍ للجميع:

- العشق نقاء، العشق كالمرآة.. خلق الله العشق كسرٍ، عمل الآخر مرآةً من أجل ذاته وراح يتفرّج على تجلّي أسماءه في تلك المرايا.

العشق مرآةٌ، أن تُرى في الآخر. الذين تجاوزوا الأنا وصلوا إلى العشق. والوصلون إلى العشق لا يرون غيره. إن بقي العشق محبّةً جافة متمسّكة بستارة الأنا لن يُرى العاشق ولا المعشوق. البشرة والروح الأنانيان لا يصبحان مرايا.

Twitter: @ketab_n

العشق، قدرة على إظهار المعشوق. العشق، رؤية المعشوق حتى وإن لم يكن موجوداً.

الرجل والمرأة مرآتان جميلتان لبعضهما البعض. في هذه المرايا يرى الأزواج بعضهم. اعتقدت سارة أن ضيق التقاسم في العالم نابع من إبراهيم. أحزنت إبراهيم بغيرتها. علماً بأنه لا حاجة للمكان وللزمان في العشق. العشق هو رمي الجسد في الوجود. في الحب الذي لم يصل إلى كيمياء العشق يوجد همّ التقاسم. الواصل إلى مقام العشق يستطيع رؤية من يُحب في كلّ مكان وفي كلّ شيء. ولهذا السبب أنا حتى في سارة رأيتُ إبراهيم، وأحببتُ سارة...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

سرُّ الإنسان
أو
سرُّ الألم في العشق

الـذين لا يريـدون التـألّم في العـشق يتوهـون علـى دروبـه ولا يثرثـرون بكلامه. القلب الذي لم يذُق طعـم الألم والمشاعر التي لم يعتصرها الألم لا يمكن أن تقبض على سر العشق. العشق أشبه بحمْلِ جبلٍ من حديد على ظهرك.

أنا، وصلتُ إلى سرَّ الإنسان ووصلتُ إلى سرَّ العشق ووصلت إلى سرَّ الألم. لقد عرفت العبودية بكلّ آلامها، ركضت نحو مكانة الأم الفخرية للكائنات أكثر من ركضي لأكون زوجة إبراهيم وأم النبي إسماعيل بكلّ آلام المصائب التي لا ترحم. تحكي أحد أسس الإسلام الخمسة عن مسيرتي المليئة بالظلم والأحزان والمفعمة بالألم، المفعمة بالعجز، المفعمة بالفقر. صار ركضي في حالة من العجز وبحثي عن سُبُل الحياة لولدي وطلبي الرحمة ومسيرتي أيضاً صارت كلها عبارة عن رسالة لكلّ عبد.

سرتُ دون اعتراض ودون تمرّد. وكلُ من يأتي إلى بكّة ولا يسير كما سرتُ لا يستطيع أن يحج ولا يستطيع أن يُنجز عمرته. وكلُ من يأتي إلى بكّة عليه أن يقلّدني. وإذا لم يسر كما سرتُ لا يمكنه الوصول إلى سرَّ الكلام في العبودية.

Twitter: @ketab_n

أساسُ سيري ليس عبارة عن ركض بين الصفا والمروة، إن الأساس هو أسلوب ونمط موقفي. أثناء سيري في العبودية لم أتّهم أحداً ولم أشكِ همّي لأحد، كنت كتومة لم أتحدث مع أحد، جبرائيل هو الذي تكلّم معي. لم أدعي بأن أحداً هو سبب ما عانيته.. لقد وجدته وعرفته.. تُركتُ في بلاد الوحدة، كنتُ كمن يُعتق. كلُّ الفراق الذي عشته وكل الحسرة التي عرفتها كنت أتخلّص منها بوضع رأسي، وإلى الأبد، في حضن الكعبة. أدركت العشق الحقيقي، أدركت بأن إفناء الجسد شيءٌ اسمه عشق..

لهذا السبب عندما يُقال بكّة يصبح الجميع هاجر.

ذهبت إلى بكّة بدموعي، سكبت الدموع طيلة أيام سفري الطويلة.

لا يمكن لأحدٍ إدراك سرّ بكّة إن لم يأتِ إليها كما أتيت.

سرُّ بكة هو الميم..

سرُّ الميم مخبّأ في حياتي..

Twitter: @ketab_n

اللعبة التي في عيوني

استقمت في جلوسي. كان شريط الذكريات يدور بسرعة في مخيّلتي. عاد بلحظةٍ إلى سنوات بعيدة. لقد هرمتُ وعلى ما يبدو وصلتُ إلى نهاية الطريق. نظرتُ إلى إسماعيل، كان أمامي يجلس مع أولاده.. أولاده سيملؤون هذا المكان.

هؤلاء هم النسل الذي وعد اللّهُ إبراهيم به. أولم يكن من قبل بلا أولاد .. ذات يومٍ رأى أماً تُغسل أولادها، فآلمه أنه دون أولاد، كان الوقت وقت غروب، أصابه حزنٌ أشبه بحزن الليل. قال له ربُه في الرؤيا :

- نسلُك سيصبح بعدد النجوم التي تراها في السماء.

نظر إبراهيم إلى النجوم ثم نظر إلى نفسه. كان رجلاً عجوزاً. تأكد مرّة أخرى من قدرة ربه.

أولاد إسماعيل سيملؤون هذا المكان. سيصبحون كثيري العدد من جهة ومن جهة أخرى سيصبحون كما النجوم جنوداً يهدون إلى السراط المستقيم. ناديته:

- يا ولدي.. فجاء إلي مسرعاً أمسك يديّ وقال:

- تفضلي يا أمي.

قبّل يديّ الجافتين مرّات عديدة، وسألني عمّا أريد بنظرات من عينيه.

شردتُ في عيني إسماعيل. تذكّرتُ أول مجيئنا إلى هنا وركضي بين

Twitter: @ketab_n

الصفا والمروة بحزنٍ بحثاً عن نقطة ماء له، وبكائي عليه لأنه سيموت من شدة الظمأ. حزنٌ مدهش يصيب الإنسان إن ابتعد لحظة عن يقينه بوجود إله رحيم يرعاه في كل لحظة. وتذكّرتُ كيف أنهت دموعي التي سكبتها مشاعر الأمومة ذاك الظمأ بالماء المبارك.

أسمع خرير مياه زمزم في عيني إسماعيل السوداوين

رشفت مرّة أخرى من زمزم تلك العينين. سألته قائلة:

- يا إسماعيل، كأنني وصلت إلى نهاية الطريق. أشعر هذه الأيام وكأنني في الجانب الآخر، الملاك عزرائيل معي في كل لحظة وأنا أريد الذهاب، عندما يأتي الحقُّ أين ستدفنني؟

نظر إسماعيل إلي ولسان حاله يقول: «لا تذهبي يا أمي» لكنه لم يعترض. هو يعلم أن ثمة حكمة ما في كلامي، نظر إلى عينيَّ وقال:

- يا أمي، أرى الكعبة في عينيك، أنت المرأة التي شهدت بناء الكعبة، أنت سيدة المدينة مالكة الكعبة فكيف لي أن أدفنك في مكان آخر؟ الأماكن الأخرى لن تقبلك.

أتيتُ إلى الكعبة كما أتى آدم إليها، وكما تُرك في هذا العالم بمفرده تُركتُ، وكما بكى بكيتُ، وكما تحسّر تحسّرتُ، وكما بحث عن يد أنسٍ في بلاد الغربة هذه التي يُطلق عليها اسم الوحدة أنا أيضاً بحثتُ. وكما تألم بحرقة من أجل المكان الذي يطوف فيه عرش الله في الجنة أنا أيضاً تألمت من أجل نيل رضا ربي. طُردتُ كما الصحاري.

ردّ الله على حرقة آدم وحسرته وعلّمه مكان التقاء عرش الله بالأرض. وأمره ببناء الكعبة، وهو من سيزيل حرقتي وحسرتي بأن يجعلني أحضن الكعبة. نظر إسماعيل إليّ وقال:

- أمي، لا أعلم هذا الانعكاس البادي في عينيك أهو انعكاس العرش أم انعكاس الكعبة.

Twitter: @ketab_n

قلب الميم

طفتُ.

الطواف لحظة ذكر الله في النفوس وفي الآفاق.

في دائرة النفوس، طفتُ في مراتب النفس السبع..

وفي دائرة الآفاق، طفتُ وأنا أعدّ سبع طبقات للأرض وسبع طبقات للسماء.

نظرتُ فرأيتني على شكل ميمٍ.

الطواف سرُ تشكّل الميم.

بالطواف ذهبت وحدة أبينا آدم وغربته في العالم الدنيا.

بدأ قلب أبونا آدم بحالة بحثٍ عن الميم.

عرض حاله على الله، وأخبره عن أنين قلبه الذي يعاني الوحدة، أنزل الله عليه البيت المعمور المصنوع من الياقوت وقال له:

- يا آدم، لقد أنزلت إليك بيتاً قم بالطواف حوله وأقم صلاتك كما يُقام هنا الطواف حول عرشي.

الذي يوصل الإنسان إلى حقيقة الميم هو الطواف والصلاة، والقبض على سرٍّ تشكل الميم الذي يُطمئن قلب الإنسان.

جاء آدم عليه السلام أربعين مرّة من الهند وطاف في الكعبة، وكان يدعو صاحب ديار الميم وينادي صاحب النور الذي شعر به على جبينه حين

Twitter: @ketab_n

خُلق أول مرّة. أعطى الله بشارة الميم لآدم عليه السلام في الصحف التي أنزلها عليه:

«هذه بلدة بكّة، وسكان هذه البلدة جيراني، وزوار هذه البلدة ضيوفي، فهم بحفظي وحمايتي، كان من الواجب أن تُبنى هذه البلدة من أجل أهل السماء وأهل الأرض، يأتي الناس أفواجاً أفواجاً إلى هذه البلدة، بالرغم من أن وجوههم تكون مغبرّة فهم يزرفون الدموع وصدى أصواتهم يرتفع بكلمة «لبّيك». كلّث من يزور هذه البلدة ولا يكون قصده من هذه الزيارة أحداً سواي يكون هذا الشخص قد زارني فعلاً ويكون أهلاً لكرمي وإحساني. وسأكلّف نبياً من أبنائك ليرفع شرف وكمال هذه البلدة وسيكون اسمه إبراهيم، وسأرتفع أسس هذا البيت بواسطته وسأكمل بناءه بيديه، وسأُظهر ماء زمزم وأتركه إرثاً له، وسيسعى أهلُ كل عصرٍ سيأتي بعد إبراهيم إلى إعمار هذا البيت، حتى يأتي عصر سيأتي نبي يكون هو خاتم الأنبياء وسينادونه باسم محمد، وكل من يبحث عني ويريد أن يطلب مني عليه أن يعرفني من خلال هذه الجماعة، ويكون لحى هؤلاء مختلطة بشعرهم ويكون معفّرين بالتراب والغبار ويفون نذوري ويرجعون إلى ربّهم، ليعرفني الباحثون عني من خلال هذه الجماعة».

بهذا الفرح دار آدم حول الكعبة. صار ميماً، طلب الميم. وإبراهيم أيضاً كان يدعو الميم، تلى الدعوات لأنه من نسل ذاك النبي العظيم. وقد بشّر الله في الصحف التي أنزلها على إبراهيم بصاحب ديار الميم:

«لقد استجبنا لدعائك لابنك إسماعيل، وجعلناه محترماً، وجعلنا الركة فيه وفي نسله من بعده، وقد أرسلنا طفلاً إلى العالم باسم محمد من نسله، إنه المصطفى، أنا اصطفيته. وستكون أمته من خير الأمم».

كانت الميم سرّ الحقيقة الأولى، كان سير «الألف» في «الميم». لا يدخل العشق ولا الكمال إلى قلب كلّ من لا تدخل حقيقة الميم إلى قلبه. لقد عمّر

Twitter: @ketab_n

الله القلوب بحقيقة الميم، وكلّ من تعمّر قلبه بحقيقة الميم تذهب وحدته، وأما من لم يتعمر قلبه بحقيقة الميم سيئنّ من الوحدة والألم.

انكشف سرّ الميم في ديار الوحدة، وكانت الهجرة والوحدة من أكبر الطلاسم في انكشاف سر الميم.

يُخلق العشقُ بالوصول إلى قلب الميم. عندما تسقط حقيقة الميم في القلب تتخلّص المحبة التي في النفس من عالم المجاز وتصل إلى سر العشق. ويُقال لهذا قلبُ الميم، إن ميم وجود الكائنات هي مكان انعكاس محبّة الله، من هذه الميم يأخذ العشق قوّة الحب، ومع هذه الميم أقامت عظمة الحب ارتباطها.

الذين لا يقبضون على حقيقة الميم لن يستطيعوا الثرثرة بقلب الميم.

القلب الذي طغت عليه الميم يصل إلى السكون كضرورة من ضرورات حقيقة الميم.

نظرتُ إلى الكعبة فرأيتها مكان انعكاس حقيقة الميم.

نظرتُ إلى قلبي فرأيته حقيقة الكعبة.

نظرتُ إلى جبين إسماعيل فرأي نور الميم تشعُّ منه.

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

العشق الأخير أو الكلام الأخير

«الذي يفني الجسد شيءٌ اسمه العشق...»

العشق، هو ميم الكنز المخفي السرية.

قديمٌ قدمُ التاريخ وسرٌ عظيم وجديدٌ لكلّ كائن.

العشق...

اسم السرِّ في بُعدِ الوجود.

العشق...

يُجبر الوجود على الظهور.

أرادت الوحدانية إظهار وجودها. استطاعت إظهار وحدانيتها بواسطة الواحد، انعكست الوحدانية على العشق، صار العشق مرآة للوحدانية. تنقّب العشق بنقاب حرمة الوحدانية. تستّرت بالعشق وأظهرت وجودها، صار ستارها العشق وحرمتها الوحدانية.

العشقُ...

تخفّى، أراد أن يبني عرشاً وأن يعلن عن سلطنته، لأنه كان بلا مكان، وفي نهاية المطاف وعبر العصور أقام مكان للامكانيته وصار القلب مكان وجود العشق.

Twitter: @ketab_n

العشقُ...

وجد عرشه في القلب.

أخفى حرمته في القلب فصار عشقاً. عندما يفرُّ العشق من القلب ويسقط على اللسان سيُطرد من ساحات العشق ويُنفى من عرش القلب ليصبح أسيراً بيد النفس.

كان العشق سراً، يجب أن يبقى العشقُ، كما السر، بعيداً عن الأعين وعن الأفئدة وعن اللغة لكي يصل إلى سر العشق...

«على العشق أن يبقى مخفيّاً في القلب حتى وإن كان مجازاً..

فعصير العنب يتخمّر في الجرار ليصبح نبيذ»

العشقُ...

كان صبراً. يُذيب الأذى والفراق في روحه.

العشقُ...

كان ميماً، كان صفراً كما الميم، تجاوز الأنا..

العشقُ...

كان صمتاً، لا يُحب النميمة.

العشقُ...

عندما يصل إلى هذه الأسرار تنضج خميرته..

عندما وصل عشقي أنا أيضاً إلى هذه الأسرار كلها كبر وأصبح بحجم الكائنات، صار نور الكائنات.

الجمع تمسّكوا بهذا العشق وتشبّثوا به.

Twitter: @ketab_n

العشقُ...

صار كعبة. صار الجميع يطوفون حوله، كلُّ العشاق أخذوا من قلبي نوراً لكي يتمسّكوا به.

تتبّعت خطوات العشق، حاولت تقليده في نمط سيره، حاولت تقليد مشيته الفريدة...

ما أرادت مسيرة هاجر قوله هو:

«كلُّ إنسان هاجر...»

والفرق..

بطريقة السير...

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

الكلام عزرُ المتكلّم

أمي سارة الغالية...

أخشى أن يخفي ما كتبته من كلمات انعكاسات روحك العفيفة، إذ لم يكن من الممكن الكتابة عن هاجر دون الكتابة عنك، لقد كنتِ «أنتِ» سبباً في خطوط القدر الذي جعل من هاجر هاجر التي نعرف.

في البداية أنتِ أول من وضع قدمي هاجر على الدروب، وأنتِ من رفعها من جاريةٍ إلى زوجة، وأنتِ أيضاً من أعادها إلى الدروب وتركتيها وحيدة في الصحراء، وأنتِ كنتِ الوسيلة التي جعلت هاجر تسير في طريق العبودية خطوة خطوة.

شعرت وأنا أكتب عن أمنا هاجر بأنكما أنتِ وهي إلى جانبي، خفت منكِ وخشيتك قليلاً، جمالك أخافني. مكانتك واعتبارك وقيمتك عند سيدنا إبراهيم جعلني أبتعد عنكِ. إن روحنا التي تحب الغرباء والمظلومين هي التي جعلتني أمسك بشفقة بيدِ أمنا هاجر التي ترك بلا حول ولا قوة في وحدتها.

تعقّبت، شئت أم أبيت، آثار أمنا هاجر التي جُرّت إلى الصحاري وسارت خلف إبراهيم إلى منفاها، وسرتُ خلفها، شاركت تلك المرأة الوحيدة في ركضها بين الصفا والمروة، وكنت صديقتها في لياليها الوحيدة.

كنتِ أنتِ دائماً بعيدة، عندما كانت وحيدة لم تكوني أنت كذلك.

Twitter: @ketab_n

عندما كانت عاجزة كنت أنتِ قوية وعندما كانت فقيرة كنتِ غنية وعندما كانت بأمس الحاجة للرحمة كنتِ أنت مع نبيٍ رحيم.

لهذه الأسباب كلها كنتِ دائماً مع أمي هاجر، أحببتها أكثر مما أحببتك، لأنها كانت أكثر طاعة منك. أحببتُ هاجر لأنها لم تكن تحب الكلام، ولا تحب النميمة. أحببتُ هاجر لأنها تطهّرت من زينة الحياة الدنيا، إنها امرأة من العالم الآخر.

وأنا أتحدث عن هاجر كنت، شئت أم أبيت، منحازة لها.

وكيف لي ألاّ أنحاز لها، أتدرين منذ متى ارتطمت هاجر بساحل قلبي؟ منذ متى بدأ المشي بين الصفا والمروة خلال الحج. ارتمت هاجر في ديار فؤادي. قبل ذلك كنتِ أنتِ وهي، بالنسبة لي، زوجتا النبي إبراهيم.

الجميعُ صاروا هاجر وهم يسيرون، يحاولون التشبّه بها، إذ دون السير كهاجر لا عمرة تتحقق ولا حج يكون.

دُهشتُ... أيُ نوع من النساء هي لدرجة أنه لا يمكن السير في طريق العبودية دون التشبّه بها شكلاً، وكيف احتلّت مكاناً في واحد من أركان الإسلام الخمسة.

كان كلُ إنسان في مكة هاجر، وكأن مكة هي هاجر. من أجل هذا تعقّبت مسيرة هاجر لسنوات طويلة لكي أسير في الحياة كأمنا هاجر.

نعم، أنا منحازة لهاجر، لأنها هي التي حدّدت أسلوب سيري.

علماً بأنك أنت أيضاً كنت من النساء الأولياء، وأنت أيضاً ضحّيت، وأنتَ أيضاً امرأة قابلت الملائكة، وأنتَ الزوجة التي تلقّت بشارتَها من الله، وأنتِ الأم التي وهبها الله معجزة إنجاب طفلٍ وهي في السنة المائة من عمرها.

أمي الغالية سارة...

الجميع رأوكِ امرأة غيورة، وأظهروا غيرتك سبباً فيما عاشته أمنا هاجر. ولكن كما كنتِ سبباً كذلك كانت غيرتكِ سبباً. ثم كيف لا يُغار منها

Twitter: @ketab_n

وهي الأمومة العظيمة للميم التي كانت سبباً في الرحمة للعالمين وفي وجود الكائنات.

أمي الغالية سارة...

ضمن الخطوط الأزلية للقدر كان لا بدّ أن تغاري، لا بد أن تغاري لكي تذهب أم الكائنات ووليدها لكي يبنيان مهد الكائنات الفخري.. كان لا بد أن تغاري لكي تُبنى الكعبة بشفقة امرأة وبعجزها وبدموعها.. كان لا بد أن تغاري لكي يغار أحفادك من أخيهم يوسف كما غارت جدّتهم.. كان لا بد أن تغاري لكي يخط هذا الشعور، الذي ورثه الأحفاد عن جدّتهم، قدَرَ حفيدها الغالي يوسف. كان لا بد أن تغاري لكي يبكي يعقوب ابن اسحق ولكي يتسلّق يوسف درجات سلّم العبودية من غياهب الجب كما فعلت هاجر، ويصل إلى النبوّة.

أمي الغالية سارة...

كيف كان لك أن تعلمي بأن حكاية الغيرة وقدر هاجر وابنها اللذين رمتهما الأم الكبرى، في إطار الخط الأزلي للقدر، ستجد لها مكاناً في الغيرة من يوسف، وبأن دموع الحسرة التي ذُرفت من عيني هاجر ستجد لها انعكاساً في الدموع التي ذُرفت من عيني يعقوب ابن اسحق...

إنه تجلّي الأزل...

يختفي في سر الكنز العديدُ من الأسرار..

تراكم السرّ فوق السر أليس سراً كبيراً؟.

ثم هل تفسيراتنا كلّها سوى البحث عن الأسرار الملتفّة حول سر الكنز الأزلي؟.

بتُّ الآن أحب غيرتك، مباركةٌ هي غيرة الروح الأصيلة التي تصنع درجات سلّم العبودية..

Twitter: @ketab_n

أيتها الأم المباركة..

إن كنتُ قلتُ كلاماً في ذاك اليوم يجرح مشاعر روحكِ الطاهرة خلال سيري مع أمي هاجر خشية أن أفهمك خطأً وأتّهمك، فأنا أطلب منك المغفرة لأنك زوجة النبي إبراهيم النبي العظيم وأم النبي اسحق وجدّة النبي يعقوب والنبي يوسف.

اعتذار المتكلّم من القارئ: مع التأكيد على الحفاظ على الوفاء للأحداث التي ذُكرت والصدق معها فإن المشاعر التي وردت ليست أكثر من تعبيرٍ عمّا شعر به أبطال الأحداث من مشاعر وأحاسيس. يجب أن تُفهم انعكاسات مشاعر هاجر وسارة من هذه الزاوية.

حاولت هاجر، عبر صفحات هذا العمل، الحديث عن جانب الحكمة الكامن في حكايةٍ جرت أحداثها قبل قرون عديدة. المهم هنا هو، أين نحن في أحداث هذه الحكاية، وهل نحن هاجر التي رضخت للقدر وبقيت وفيّة لعشقها، أم نحن سارة التي تخلّصت من القادم وأبعدت من ظنّتها بأنها ظلاً سيظلل محبّتها؟ أم نحن إبراهيم، مثال الوفاء والحنان والرحمة، الذي صبر وتحمّل وتوكّل مستعيناً باتساع عشقه الإلهي لكي لا يجرح قلبين تقاسما عشقه؟..

Twitter: @ketab_n


Twitter: @ketab_n

- يتحدث «عشق السكون» عن هاجر، بجمل تهز الإنسان أحياناً وتدهشه أحياناً أخرى. وتأخذه من ذاته وتنقله إلى اللانهاية.

ربما هذه الرواية لا تتحدث عن هاجر وحسب بل تتحدث من خلال شخصها عن كل(امرأة) و (أم) فعشق السكون يحوِّل حياة مُعاشة إلى حياة يمكن أن (تُعاش) من جديد بـ (تسليم) و (رضا) و(أمل) و(حب) و(عشق).

ياووز بهاضر أوغلو

- عشق السكون رواية مشحونة بالمعنويات والمعنى، حيث تعيد الكاتبة لكلمة «عشق» التي تمَّ استهلاكها منذ زمن بعيد إلى مجموعة من القيم التي تستحقها من خلال حديثها عن هاجر مستفيدة من كل إمكانات الأدب.

متين كاراباش أوغلو

- هذه الرواية ذروة نجاح تلاقي التصوف مع الفن والشعر والرومانسية والحكمة والإيمان.

مريم آي بيكاسينان

- الرواية منجز حضاري لكل تجربة تتحول إلى إيمان.

أيمن الغزالي

@ketab_n





للدراسات
والنشر
والتوزيع

